

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

معالم
في
الطريق

سبلد
قطب

دار الشروق

سَيِّدُ قُطْبٍ

مَعَالِمُ الرُّفَى فِي الطَّرِيقِ

دار الشروق 

الطبعة الشرعية السادسة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - بركياً : داشروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - بركياً : شروق القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَعْلَمٌ فِي الطَّرِيقِ

تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية .. لا بسبب التهديد بالفناء المعلق على رأسها .. فهذا عرض للمرض وليس هو المرض .. ولكن بسبب إفلاسها في عالم « القيم » التي يمكن ان تنمو الحياة الانسانية في ظلالها نموا سليما وتترقى ترقيا صحيحا . وهذا واضح كل الوضوح في العالم الغربي ، الذي لم يعد لديه ما يعطيه للبشرية من « القيم » ، بل الذي لم يعد لديه ما 'يقنع ضميره باستحقاقه للوجود ، بعدما انتهت « الديمقراطية » فيه الى ما يشبه الافلاس ، حيث بدأت تستعير - ببطء - وتقتبس من أنظمة المعسكر الشرقي وبخاصة في الانظمة الاقتصادية ! تحت اسم الاشتراكية !

كذلك الحال في المعسكر الشرقي نفسه .. فالنظريات الجماعية وفي مقدمتها الماركسية التي اجتذبت في أول عهدها عددا كبيرا في الشرق - وفي الغرب نفسه - باعتبارها مذهبا يحمل طابع العقيدة ، قد تراجعت هي الاخرى تراجعا واضحا من ناحية « الفكرة » حتى لتكاد تنحصر الان في « الدولة » وأنظمتها ، التي تبعد بعدا كبيرا عن أصول المذهب .. وهي على العموم تناهض طبيعة الفطرة البشرية ومقتضياتها ، ولا تنمو الا في بيئة محطمة ! أو بيئة قد ألفت النظام الدكتاتوري فترات طويلة ! وحتى في مثل هذه البيئات قد بدأ يظهر فشلها المادي الاقتصادي - وهو الجانب الذي

تقوم عليه وتتبعج به - فروسيا - التي تمثل قمة الانظمة
الجماعية - تتناقض غلاتها بعد ان كانت فائضة حتى في عهود
القياصرة ، وتستورد القمح والمواد الغذائية ، وتبيع ما لديها
من الذهب لتحصل على الطعام بسبب فشل المزارع الجماعية
وفشل النظام الذي يصادم الفطرة البشرية .

ولا بد من قيادة للبشرية جديدة !

إن قيادة الرجل الغربي للبشرية قد اوشكت على
الزوال . . لا لأن الحضارة الغربية قد افلست ماديا او ضعفت
من ناحية القوة الاقتصادية والعسكرية . . ولكن لأن النظام
الغربي قد انتهى دوره لأنه لم يعد يملك رصيда من « القيم »
يسمح له بالقيادة .

لا بد من قيادة تملك ابقاء وتنمية الحضارة المادية
التي وصلت اليها البشرية ، عن طريق العبقرية الاوروبية
في الابداع المادي ، وتزود البشرية بقيم جديدة جدّة كاملة
- بالقياس الى ما عرفته البشرية - وبمنهج اصيل وايجابي
واقعي في الوقت ذاته .

والاسلام - وحده - هو الذي يملك تلك القيم وهذا
المنهج .

لقد أدّت النهضة العلمية دورها . . هذا الدور الذي
بدأت مطالعه مع عصر النهضة في القرن السادس عشر
الميلادي ، ووصلت الى ذروتها خلال القرنين الثامن عشر
والتاسع عشر . . ولم تعد تملك رصيда جديدة .

كذلك أدّت « الوطنية » و « القومية » التي برزت في
تلك الفترة ، والتجمعات الاقليمية عامة دورها خلال هذه
القرون . . ولم تعد تملك هي الاخرى رصيда جديدة .

ثم فشلت الانظمة الفردية والانظمة الجماعية في نهاية المطاف .

ولقد جاء دور « الاسلام » . ودور « الامة » في أشد الساعات حرجا وحيرة واضطرابا . . . جاء دور الاسلام الذي لا يتنكر للابداع المادي في الارض ، لانه يعدّه من وظيفة الانسان الاولى منذ ان عهد الله اليه بالخلافة في الارض ، ويعتبره - تحت شروط خاصة - عبادة لله ، وتحقيقا لغاية الوجود الانساني .

« واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة »
(سور البقرة : ٣٠)

« وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون »
(الذاريات : ٥٦)

وجاء دور « الامة المسلمة » لتحقيق ما اراده الله باخراجها للناس :

« كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . . . (آل عمران : ١٠)
« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » . . . (سورة البقرة : ١٤٣) .

ولكن الاسلام لا يملك ان يؤدي دوره الا أن يتمثل في مجتمع ، أي أن يتمثل في أمة . . . فالبشرية لا تستمع - وبخاصة في هذا الزمان - الى عقيدة مجردة ، لا ترى مصداقها الواقعي في حياة مشهودة . . . و « وجود » الامة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة . . . فالأمة المسلمة

ليست « أرضا » كان يعيش فيها الاسلام . وليست « قوما » كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الاسلامي . . . انما « الامة المسلمة » جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم واوضاعهم وانظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الاسلامي . . . وهذه الامة - بهذه المواصفات ! قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الارض جميعا .

ولا بد من « اعادة وجود » هذه « الامة » لكي يؤدي الاسلام دوره المرتقب في قيادة البشرية مرة اخرى .

لا بد من « بعث » لتلك الامة التي واراها ركام الاجيال وركام التصورات ، وركام الاوضاع ، وركام الانظمة ، التي لا صلة لها بالاسلام ، ولا بالمنهج الاسلامي . . وان كانت ما تزال تزعم انها قائمة فيما يسمى « العالم الاسلامي » !!!

وانا أعرف ان المسافة بين محاولة « البعث » وبين تسلم « القيادة » مسافة شاسعة . . فقد غابت الامة المسلمة عن « الوجود » وعن « الشهود » دهرا طويلا . وقد تولت قيادة البشرية افكار اخرى وامم اخرى ، وتصورات اخرى وأوضاع اخرى فترة طويلة . وقد ابدعت العبقريّة الاوروبية في هذه الفترة رصيذا ضخما من « العلم » و « الثقافة » و « الانظمة » و « الانتاج المادي » . . وهو رصيذ ضخم تقف البشرية على قمته ، ولا تفرط فيه ولا فيمن يمثله بسهولة ! وبخاصة أن ما يسمى « العالم الاسلامي » يكاد يكون عاطلا من كل هذه الزينة !

ولكن لا بد - مع هذه الاعتبارات كلها - من « البعث الاسلامي » مهما تكن المسافة شاسعة بين محاولة البعث

وبين تسلّم القيادة • فمحاولة البعث الاسلامي هي الخطوة الاولى التي لا يمكن تخطيها !

ولكي نكون على بيّنة من الامر ، ينبغي أن ندرك - على وجه التحديد - مؤهلات هذه الامة للقيادة البشرية ، كي لا نخطئ عناصرها في محاولة البعث الاولى •

ان هذه الامة لا تملك الآن - وليس مطلوبا منها - ان تقدم للبشرية تفوقا خارقا في الابداع المادي ، يحسني لها الرقاب ، ويفرض قيادتها العالمية من هذه الزاوية • • فالعبقرية الاوروبية قد سبقته في هذا المضمار سبقا واسعا • وليس من المنتظر - خلال عدة قرون على الاقل - التفوق المادي عليها !

فلا بد اذن من مؤهل آخر ! المؤهل الذي تفتقده هذه الحضارة !

ان هذا لا يعني ان نهمل الابداع المادي • فمن واجبنا ان نحاول فيه جهدنا • ولكن لا بوصفه « المؤهل » الذي نتقدم به لقيادة البشرية في المرحلة الراهنة • انما بوصفه ضرورة ذاتية لوجودنا • كذلك بوصفه واجبا يفرضه علينا « التصور الاسلامي » الذي ينوط بالانسان خلافة الارض ، ويجعلها - تحت شروط خاصة - عبادة لله ، وتحقيقا لغاية الوجود الانساني •

لا بد اذن من مؤهل آخر لقيادة البشرية - غير الابداع المادي - ولن يكون هذا المؤهل سوى « العقيدة » و « المنهج » الذي يسمح للبشرية أن تحتفظ بنتاج العبقرية المادية ، تحت اشراف تصور آخر يلبي حاجة الفطرة كما يلبيها الابداع

المادي ، وأن تتمثل العقيدة والمنهج في تجمع انساني • أي في مجتمع مسلم •

انّ العالم يعيش اليوم كله في « جاهلية » من ناحية الاصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وانظمتها • جاهلية لا تخفف منها شيئاً هذه التيسيرات المادية الهائلة ، وهذا الابداع المادي الفائق !

هذه الجاهلية تقوم على اساس الاعتداء على سلطان الله في الارض وعلى أخص خصائص الالوهية • • وهي الحاكمة • • انها تسند الحاكمة الى البشر ، فتجعل بعضهم لبعض اربابا ، لا في الصورة البدائية الساذجة التي عرفت الجاهلية الاولى ، ولكن في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم ، والشرائع والقوانين ، والانظمة والاضاع ، بمعزل عن منهج الله للحياة ، وفيما لم يأذن به الله • • فينشأ عن هذا الاعتداء على سلطان الله اعتداء على عباده • • وما مهانة « الانسان » عامة في الانظمة الجماعية ، وما ظلم « الافراد » والشعوب بسيطرة رأس المال والاستعمار في النظم « الرأسمالية » الا أثرا من آثار الاعتداء على سلطان الله ، وانكار الكرامة التي قراها الله للانسان !

وفي هذا يتفرد المنهج الاسلامي • • فالناس في كل نظام غير النظام الاسلامي ، يعبد بعضهم بعضا - في صورة من الصور - وفي المنهج الاسلامي وحده يتحرر الناس جميعا من عبادة بعضهم لبعض ، بعبادة الله وحده ، والتلقي من الله وحده ، والخضوع لله وحده •

وهذا هو مفترق الطريق • • وهذا كذلك هو التصور الجديد الذي نملك اعطائه للبشرية - هو وسائر ما يترتب

عليه من آثار عميقة في الحياة البشرية الواقعية - وهذا هو الرصيد الذي لا تملكه البشرية ، لانه ليس من « منتجات » الحضارة الغربية ، وليس من منتجات العبقريّة الاوروبية ! شرقية كانت او غربية .



اننا - دون شك - نملك شيئاً جديداً جدّة كاملة . شيئاً لا تعرفه البشرية . ولا تملك هي ان « تنتجه » ! ولكن هذا الجديد ، لا بد ان يتمثل - كما قلنا - في واقع عملي . لا بد ان تعيش به أمة .. وهذا يقتضي عملية « بعث » في الرقعة الاسلامية هذا البعث الذي يتبعه - على مسافة ما بعيدة أو قريبة - تسلم قيادة البشرية .

فكيف تبدأ عملية البعث الاسلامي ؟

انه لا بد من طبيعة تعزم هذه العزمة ، وتمضي في الطريق . تمضي في خضم الجاهلية الضاربة الاطناب في ارجاء الارض جميعا . تمضي وهي تزاوّل نوعاً من العزلة من جانب ، ونوعاً من الاتصال من الجانب الآخر بالجاهلية المحيطة ..

ولا بد لهذه الطبيعة التي تعزم هذه العزمة من « معالم في الطريق » معالم تعرف منها طبيعة دورها ، وحقيقة وظيفتها ، وصلب غايتها ، ونقطة البدء في الرحلة الطويلة .. كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الاطناب في الارض جميعا .. اين تلتقي مع الناس وأين تفترق ؟ ما خصائصها هي وما خصائص الجاهلية من حولها ؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الاسلام وفيهم تخاطبها ؟ ثم تعرف من أين تتلقى - في هذا كله - وكيف تتلقى ؟

هذه المعالم لا بد ان تقام من المصدر الاول لهذه العقيدة .. القرآن .. ومن توجيهاته الاساسية ، ومن التصور الذي انشأه في نفوس الصفوة المختارة ، التي صنع الله بها في الارض ما شاء ان يصنع ، والتي حولت خط سير التاريخ مرة الى حيث شاء الله ان يسير .



لهذه الطبيعة المرجوة المرتقبة كتبت ' معالم في الطريق ' . منها أربعة فصول مستخرجة من كتاب ' في ظلال القرآن ' مع تعديلات واضافات مناسبة لموضوع كتاب المعالم (١) . ومنها ثمانية فصول - غير هذه المقدمة - مكتوبة في فترات حسبما اوحى به اللفظات المتواليّة الى المنهج الرباني الممثل في القرآن الكريم .. وكلها يجمعها - على تفرقها - انها معالم في الطريق ، كما هو الشأن في معالم كل طريق ! وهي في مجموعها تمثل المجموعة الاولى من هذه ' المعالم ' والتي أرجو ان تتبعها مجموعة اخرى أو مجموعات ، كلما هداني الله الى معالم هذا الطريق !

وبالله التوفيق .

(١) ' طبيعة المنهج القرآني ' .. و ' التصور الاسلامي والثقافة ' .

و ' الجهاد في سبيل الله ' و ' نشأة المجتمع المسلم وخصائصه ' .

جيل قرآن فريد

هنالك ظاهرة تاريخية ينبغي ان يقف امامها اصحاب الدعوة الاسلامية في كل ارض وفي كل زمان . وان يقفوا امامها طويلا . ذلك أنها ذات أثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرجت هذه الدعوة جيلا من الناس - جيل الصحابة رضوان الله عليهم - جيلا مميزا في تاريخ الاسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه . ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة اخرى . . نعم 'وجد افراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ . ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم ، في مكان واحد ، كما وقع في الفترة الاولى من حياة هذه الدعوة .

هذه ظاهرة واضحة واقعة ، ذات مدلول ينبغي الوقوف امامه طويلا ، لعلنا نهتدي الى سره .

ان قرآن هذه الدعوة بين ايدينا ، وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه العملي ، وسيرته الكريمة ، كلها بين أيدينا كذلك ، كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الاول ، الذي لم يتكرر في التاريخ . . ولم يغب الا شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فهل هذا هو السر ؟

لو كان وجود شخص رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - حتميا لقيام هذه الدعوة ، وايتائها ثمراتها ، ما جعلها الله دعوة للناس كافة ، وما جعلها آخر رسالة ، وما وكل اليها امر الناس في هذه الارض ، الى آخر الزمان ..

ولكن الله - سبحانه - تكفل بحفظ الذكر، وعلم ان هذه الدعوة يمكن ان تقوم بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويمكن ان تؤتي ثمارها . فاختاره الى جواره بعد ثلاثة وعشرين عاما من الرسالة ، وابقى هذا الدين من بعده الى آخر الزمان .. وإذن فان غيبة شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها .



فلنبحث اذن وراء سبب آخر . لننظر في النبع الذي كان يستقي منه هذا الجيل الاول ، فلعل شيئا قد تغير فيه . ولننظر في المنهج الذي تخرجوا عليه ، فلعل شيئا قد تغير فيه كذلك .

كان النبع الاول الذي استقى منه ذلك الجيل هو نبع القرآن . القرآن وحده . فما كان حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهديه الا أثرا من آثار ذلك النبع . فعندما سُئِلَتْ عائشة رضي الله عنها - عن 'خلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت : ' كان 'خلقه القرآن ، (١) .

كان القرآن وحده اذن هو النبع الذي يستقون منه ، ويتكيفون به ، ويتخرجون عليه ، ولم يكن ذلك كذلك لانه لم يكن للبشرية يومها حضارة ، ولا ثقافة ، ولا علم ، ولا

(١) أخرجه النسائي .

مؤلفات ، ولا دراسات . . كلا ! فقد كانت هناك حضارة
الرومان وثقافتها وكتبها وقانونها الذي ما تزال أوروبا تعيش
عليه ، او على امتداده . وكانت هناك مخلفات الحضارة
الاغريقية ومنطقها وفلسفتها وفنها ، وهو ما يزال ينبوع
التفكير الغربي حتى اليوم . وكانت هناك حضارة الفرس
وفنها وشعرها واساطيرها وعقائدها ونظم حكمها كذلك .
وحضارات اخرى قاصية ودانية : حضارة الهند وحضارة
الصين الخ . وكانت الحضارتان الرومانية والفارسية تحفان
بالجزيرة العربية من شمالها ومن جنوبها ، كما كانت اليهودية
والنصرانية تعيشان في قلب الجزيرة . . فلم يكن اذن عن
فقر في الحضارات العالمية والثقافات العالمية يقصر ذلك
الجيل على كتاب الله وحده . . في فترة تكونه . . وانما كان
ذلك عن « تصميم » مرسوم ، ونهج مقصود . يدل على هذا
القصد غضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد رأى
في يد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - صحيفة من
التوراة . وقوله : « انه والله لو كان موسى حياً بين
أظهركم ما حلّ له الا ان يتبعني » (١) .

واذن فقد كان هناك قصد من رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - ان يقصر النبع الذي يستقي منه ذلك
الجيل . . في فترة التكون الاولى . . على كتاب الله وحده ،
لتخلص نفوسهم له وحده . ويستقيم عودهم على منهجه
وحده . ومن ثم غضب أن رأى عمر بن الخطاب - رضي الله
عنه - يستقي من نبع آخر .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يريد
صنع جيل خالص القلب . خالص العقل . خالص التصور .

(١) رواه الحافظ ابو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر .

خالص الشعور • خالص التكوين من أي مؤثر آخر غير المنهج الالهي ، الذي يتضمنه القرآن الكريم •

ذلك الجيل استقى اذن من ذلك النبع وحده • فكان له في التاريخ ذلك الشأن الفريد • • ثم ما الذي حدث ، اختلطت الينابيع ! صبت في النبع الذي استقت منه الاجيال التالية فلسفة الاغريق ومنطقهم ، واساطير الفرس وتصوراتهم ، واسرائيليات اليهود ولاهوت النصارى ، وغير ذلك من رواسب الحضارات والثقافات • واختلط هذا كله بتفسير القرآن الكريم ، وعلم الكلام ، كما اختلط بالفقه والاصول ايضا • وتخرج على ذلك النبع المشوب سائر الاجيال بعد ذلك الجيل ، فلم يتكرر ذلك الجيل ابدا •

وما من شك ان اختلاط النبع الاول كان عاملا اساسياً من عوامل ذلك الاختلاف البين بين الاجيال كلها وذلك الجيل المميز الفريد •



هناك عامل أساسي آخر غير اختلاف طبيعة النبع • ذلك هو اختلاف منهج التلقي عما كان عليه في ذلك الجيل الفريد • •

انهم - في الجيل الاول - لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والاطلاع ، ولا بقصد التذوق والمتاع • لم يكن احدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف الى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولا يملأ به جعبته • انما كان يتلقى القرآن ليتلقى امر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحيها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الامر ليعمل

به فور سماعه ، كما يتلقى الجندي في الميدان « الامر اليومي » ليعمل به فور تلقيه ! ومن ثم لم يكن احدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة ، لأنه كان يحس انه انما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفي بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه . (١) .

هذا الشعور .. شعور التلقي للتنفيذ .. كان يفتح لهم من القرآن آفاقا من المتاع وآفاقا من المعرفة ، لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا اليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع ، وكان ييسر لهم العمل ، ويخفف عنهم ثقل التكاليف ، ويخلط القرآن بذواتهم ، ويحوّله في نفوسهم وفي حياتهم الى منهج واقعي ، والى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الازهان ولا في بطون الصحائف ، انما تتحول آثارا وأحداثا تحوّل خط سير الحياة .

ان هذا القرآن لا يمنح كنوزه الا لمن 'يقبل عليه بهذه الروح : روح المعرفة المنشئة للعمل . انه لم يجرء ليكون كتاب متاع عقلي ، ولا كتاب ادب وفن ، ولا كتاب قصة وتاريخ - وان كان هذا كله من محتوياته - انما جاء ليكون منهاج حياة . منهاجا إلهيا خالصا . وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقا ، يتلو بعضه بعضا :

« وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .. (الاسراء : ١٠٦) .

لم ينزل هذا القرآن جملة ، انما نزل وفق الحاجات المتجددة ، ووفق النمو المطرد في الافكار والتصورات ،

(١) ذكره ابن كثير في مقدمة التفسير .

والنمو المطرد في المجتمع والحياة ، ووفق المشكلات العملية التي تواجهها الجماعة المسلمة في حياتها الواقعية . وكانت الآية أو الآيات تنزل في الحالة الخاصة والحادثة المعينة تحدث الناس عما في نفوسهم ، وتصوّر لهم ما هم فيه من الامر ، وترسم لهم منهج العمل في الموقف ، وتصحح لهم اخطاء الشعور والسلوك ، وتربطهم في هذا كله بالله ربهم ، وتعرفه لهم بصفاته المؤثرة في الكون ، فيحسون حينئذ انهم يعيشون مع الملائكة الاعلى ، تحت عين الله ، في رحاب القدرة . ومن ثم يتكيفون في واقع حياتهم ، وفق ذلك المنهج الالهي القويم .

منهج التلقي للتنفيذ والعمل هو الذي صنع الجيل الاول . ومنهج التلقي للدراسة والمتاع هو الذي خرّج الاجيال التي تليه . وما من شك ان هذا العامل الثاني كان عاملا اساسيا كذلك في اختلاف الاجيال كلها عن ذلك الجيل المميز الفريد .



• هناك عامل ثالث جدير بالانتباه والتسجيل •

لقد كان الرجل حين يدخل في الاسلام يخلع على عتبه كل ماضيه في الجاهلية . كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها الى الاسلام انه يبدأ عهدا جديدا ، منفصلا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية . وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس ان كل هذا رجس لا يصلح للاسلام ! وبهذا الاحساس كان يتلقى هدي الاسلام الجديد ، فاذا غلبته نفسه مرة ، واذا اجتذبت عاداته مرة ، واذا ضعف عن تكاليف الاسلام مرة .. شعر في الحال بالاثم والخطيئة ،

وادرک فی قرارة نفسه انه فی حاجة الى التطهر مما وقع فیہ ،
وعاد یحاول من جدید ان یكون علی وفق الهدی القرآنی •

كانت هناك عزلة شعورية كاملة بین ماضی المسلم فی
جاهلیته وحاضره فی اسلامه ، تنشأ عنها عزلة كاملة فی صلاته
بالمجتمع الجاهلی من حوله وروابطه الاجتماعیة ، فهو قد
انفصل نهائیا من بیئته الجاهلیة واتصل نهائیا ببیئته
الاسلامیة • حتی ولو كان يأخذ من بعض المشرکین ویعطی
فی عالم التجارة والتعامل الیومی ، فالعزلة الشعورية شیء
والتعامل الیومی شیء آخر •

وكان هناك انخلاع من البیئة الجاهلیة ، وعرفها
وتصورها ، وعاداتها وروابطها ، ینشأ عن الانخلاع من عقیده
الشرك الى عقیده التوحید ، ومن تصور الجاهلیة الى تصور
الاسلام عن الحیاة والوجود • وینشأ من الانضمام الى
التجمع الاسلامی الجدید ، بقيادته الجدیدة ، ومنح هذا
المجتمع وهذه القیادة كل ولائه وكل طاعته وكل تبعیته •

وكان هذا مفرق الطریق ، وكان بدء السیر فی الطریق
الجدید ، السیر الطلیق مع التخفف من كل ضغط للتقالید
التي يتواضع علیها المجتمع الجاهلی ، ومن كل التصورات
والقیم السائدة فیہ • ولم یكن هناك الا ما یلقاه المسلم من
اذی وفتنة ، ولكنه هو فی ذات نفسه قد عزم وانتهی ، ولم
یعد لضغط التصور الجاهلی ، ولا لتقالید المجتمع الجاهلی
علیه من سبیل •

نحن الیوم فی جاهلیة كالجاهلیة التي عاصرها الاسلام
أو اظلم • كل ما حولنا جاهلیة •• تصورات الناس وعقائدهم ،
عاداتهم وتقالیدهم ، موارد ثقافتهم ، فنونهم وآدابهم ،
شرائعهم وقوانینهم • حتی الكثير مما نحسبه ثقافة اسلامیة ،

ومراجع اسلامية ، وفلسفة اسلامية ، وتفكير اسلاميا . .
هو كذلك من صنع هذه الجاهلية !!

لذلك لا تستقيم قيم الاسلام في نفوسنا ، ولا يتضح
تصور الاسلام في عقولنا ، ولا ينشأ فينا جيل ضخم من
الناس من ذلك الطراز الذي انشأه الاسلام اول مرة .

فلا بد اذن - في منهج الحركة الاسلامية - ان نتجرد
في فترة الحضارة والتكوين من كل مؤثرات الجاهلية التي
نعيش فيها ونستمد منها . لا بد ان نرجع ابتداء الى النبع
الخالص الذي استمد منه اولئك الرجال ، النبع المضمون
انه لم يختلط ولم تشبه شائبة . نرجع اليه نستمد منه
تصورنا لحقيقة الوجود كله ولحقيقة الوجود الانساني ولكافة
الارتباطات بين هذين الوجودين وبين الوجود الكامل الحق ،
وجود الله سبحانه . . ومن ثم نستمد تصوراتنا للحياة ،
وقيمنا واخلاقنا ، ومناهجنا للحكم والسياسة والاقتصاد وكل
مقومات الحياة .

ولا بد ان نرجع اليه - حين نرجع - بشعور التلقي
للتنفيذ والعمل ، لا بشعور الدراسة والمتاع . نرجع اليه
لنعرف ماذا يطلب منا ان نكون ، لنكون . وفي الطريق
سنلتقي بالجمال الفني في القرآن وبالقصص الرائع في
القرآن ، وبمشاهد القيامة في القرآن . . وبالمناطق الوجداني
في القرآن . . وبسائر ما يطلبه اصحاب الدراسة والمتاع .
ولكننا سنلتقي بهذا كله دون ان يكون هو هدفنا الاول . ان
هدفنا الاول ان نعرف : ماذا يريد منا القرآن ان نعمل ؟ ما
هو التصور الكلي الذي يريد منا ان نتصور ؟ كيف يريد
القرآن ان يكون شعورنا بالله ؟ كيف يريد ان تكون اخلاقنا
واوضاعنا ونظامنا الواقعي في الحياة ؟

ثم لا بد لنا من التخلص من ضغط المجتمع الجاهلي

والتصورات الجاهلية والتقاليد الجاهلية والقيادة الجاهلية
.. في خاصة نفوسنا .. ليست مهمتنا ان نصطلح مع واقع
هذا المجتمع الجاهلي ولا ان ندين بالولاء له ، فهو بهذه
الصفة .. صفة الجاهلية .. غير قابل لان نصطلح معه .
ان مهمتنا ان نغيّر من أنفسنا أولا لنغير هذا المجتمع أخيرا .

ان مهمتنا الاولى هي تغيير واقع هذا المجتمع . مهمتنا
هي تغيير هذا الواقع الجاهلي من اساسه . هذا الواقع
الذي يصطدم اصطداما اساسيا بالمنهج الاسلامي ، وبالتصور
الاسلامي ، والذي يحرمنا بالقهر والضغط ان نعيش كما
يريد لنا المنهج الالهي ان نعيش .

ان اولى الخطوات في طريقنا هي ان نستعلي على هذا
المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته . وألا نعدّل نحن في قيمنا
وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق .
كلا ! اننا واياء على مفرق الطريق ، وحين نسايره خطوة
واحدة فاننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق !

وسنلتقي في هذا عنّا ومشقة، وستفرض علينا توضيحات
باهظة ، ولكننا لسنا مخيرين اذا نحن شئنا أن نسلك طريق
الجيل الاول الذي أقر الله به منجّه الالهي ، ونصره على
منهج الجاهلية .

وانه لمن الخير ان ندرك دائما طبيعة منهجنا ، وطبيعة
موقفنا ، وطبيعة الطريق الذي لا بد ان نسلكه للخروج من
الجاهلية كما خرج ذلك الجيل المميز الفريد ..

طبيع المنهج القرآني*

ظل القرآن المكّي ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاثة عشر عاما كاملة ، يحدثه فيها عن قضية واحدة . قضية واحدة لا تتغير ، ولكن طريقة عرضها لا تكاد تتكرر . ذلك الاسلوب القرآني يدعها في كل عرض جديدة ، حتى لكانما يطرقها للمرة الاولى .

لقد كان يعالج القضية الاولى ، والقضية الكبرى ، والقضية الاساسية ، في هذا الدين الجديد . . قضية العقيدة . . ممثلة في قاعدتها الرئيسية . . الالهية والعبودية ، وما بينهما من علاقة .

لقد كان يخاطب بهذه الحقيقة « الانسان » . . الانسان بما انه انسان . . وفي هذا المجال يستوي الانسان العربي في ذلك الزمان والانسان العربي في كل زمان ، كما يستوي الانسان العربي وكل انسان ، في ذلك الزمان وفي كل زمان !

انها قضية « الانسان » التي لا تتغير ، لأنها قضية وجوده في هذا الكون وقضية مصيره . قضية علاقته بهذا الكون وبهؤلاء الاحياء ، وقضية علاقته بخالق هذا الكون وخالق هذه الاحياء . وهي قضية لا تتغير ، لأنها قضية الوجود والانسان .

(*) - مستخرج من كتاب : « في ظلال القرآن » من التعريف بسورة الانعام في الجزء السابع من الطبعة الثانية المنقحة مع اضافات قليلة .

لقد كان هذا القرآن المكي يفسر للانسان سر وجوده
ووجود هذا الكون من حوله . . كان يقول له : من هو ؟
ومن أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ والى أين يذهب في نهاية المطاف ؟
من ذا الذي جاء به من العدم والمجهول ؟ ومن ذا الذي يذهب
به ، وما مصيره هناك ؟ وكان يقول له : ما هذا الوجود
الذي يحسه ويراه ، والذي يحس ان وراءه غيبا يستشرفه
ولا يراه ؟ من أنشأ هذا الوجود المليء بالاسرار ؟ من ذا
يدبره ؟ ومن ذا يحوره ؟ ومن ذا يجدد فيه ويغير على
النحو الذي يراه ؟ . . وكان يقول له كذلك : كيف يتعامل
مع خالق هذا الكون ، ومع الكون ايضا ، كما يبين له : كيف
يتعامل العباد مع العباد ؟

وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود
« الانسان » . وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها
وجوده على توالي الازمان .

وهكذا انقضت ثلاثة عشر عاما كاملة في تقرير هذه
القضية الكبرى ، القضية التي ليس وراءها شيء في حياة
الانسان الا ما يقوم عليها من المقتضيات والتفريعات .

ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الاساسية الى
شيء مما يقوم عليها من التفريعات المتعلقة بنظام الحياة ،
الا بعد ان علم الله انها قد استوفت ما تستحقه من البيان ،
وانها استقرت استقرارا مكينا ثابتا في قلوب العصابة المختارة
من بني الانسان ، التي قدّر الله أن يقوم هذا الدين عليها ،
وأن تتولى هي انشاء النظام الواقعي الذي يتمثل فيه هذا
الدين .

واصحاب الدعوة الى دين الله ، والى اقامة النظام

الذي يتمثل فيه هذا الدين في واقع الحياة ، خليقون ان يقفوا طويلا امام هذه الظاهرة الكبيرة ، ظاهرة تصدي القرآن المكي خلال ثلاثة عشر عاما لتقرير هذه العقيدة ، ثم وقوفه عندها لا يتجاوزها الى شيء من تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والتشريعات التي تحكم المجتمع المسلم الذي يعتنقها .

لقد شئت حكمة الله ان تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى لها الدعوة منذ اليوم الاول للرسالة ، وأن يبدأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اولى خطواته في الدعوة بدعوة الناس أن يشهدوا : ان لا إله الا الله ، وأن يمضي في دعوته يعرف الناس بربهم الحق ، ويعبدهم له دون سواه .

ولم تكن هذه - في ظاهر الأمر وفي نظرة العقل البشري المحجوب - هي أيسر السبل الى قلوب العرب ! فلقد كانوا يعرفون من لغتهم معنى « اله » ومعنى : « لا إله الا الله » . كانوا يعرفون ان الالهية تعني الحاكمية العليا . . . وكانوا يعرفون ان توحيد الالهية وافراد الله - سبحانه - بها ، معناه نزع السلطان الذي يزاوله الكهان ومشيخة القبائل والامراء والحكام ، وردّه كله الى الله . . . السلطان على الضمائر ، والسلطان على الشعائر ، والسلطان على واقعيات الحياة ، والسلطان في المال ، والسلطان في القضاء ، والسلطان في الارواح والابدان . . . كانوا يعلمون ان « لا إله الا الله » ثورة على السلطان الارضي الذي يغتصب اولى خصائص الالهية ، وثورة على الاوضاع التي تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التي تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله . . . ولم يكن يغيب عن العرب - وهم يعرفون لغتهم جيدا ويعرفون المدلول الحقيقي لدعوة - « لا

إله إلا الله ، - ماذا تعني هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم
ورياساتهم وسلطانهم ، ومن ثم استقبلوا هذه الدعوة - او
هذه الثورة - ذلك الاستقبال العنيف ، وحاربوها هذه
الحرب التي يعرفها الخاص والعام ..

فلم كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة ؟ ولم اقتضت
حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء ؟

لقد 'بعث' رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذا
الدين ، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في ايدي العرب،
انما هي في ايدي غيرهم من الاجناس !

بلاد الشام كلها في الشمال خاضعة للروم ، يحكمها امراء
عرب من قبل الروم ، وبلاد اليمن كلها في الجنوب خاضعة
للفرس ، يحكمها امراء عرب من قبل الفرس ، وليست في
ايدي العرب الا الحجاز وتهامة ونجد ، وما اليها من
الصحارى القاحلة التي تتناثر فيها الواحات الخصبة هنا
وهناك !

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد - صلى الله
عليه وسلم - وهو الصادق الامين الذي حكمه اشراف
قريش قبل ذلك في وضع الحجر الاسود ، وارتضوا حكمه ،
منذ خمسة عشر عاما قبل الرسالة ، والذي هو في الذؤابة
من بني هاشم أعلى قريش نسبا .. انه كان في استطاعته
ان يثيرها قومية عربية تستهدف جميع قبائل العرب التي
أكلتها الثارات ومزقتها النزاعات ، وتوجيهها وجهة قومية
لاستخلاص ارضها المغتصبة من الامبراطوريات المستعمرة ..
الرومان في الشمال والفرس في الجنوب .. واعلاء راية

العربية والعروبة ، وانشاء وحدة قومية في كل ارجاء الجزيرة .

وربما قيل : انه لو دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الدعوة لاستجابت له العرب قاطبة ، بدلا من ان يعاني ثلاثة عشر عاما في اتجاه معارض لأهواء أصحاب السلطان في الجزيرة !

وربما قيل : ان محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان خليقا - بعد ان يستجيب له العرب هذه الاستجابة ، وبعد ان يولوه فيهم القيادة والسيادة ، وبعد استجماع السلطان في يديه ، والمجد فوق مفرقيه - ان يستخدم هذا كله في اقرار عقيدة التوحيد التي بعث بها ، في تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد ان عبدهم لسلطانه البشري !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجّه رسوله - صلى الله عليه وسلم - هذا التوجيه ! انما وجهه الى ان يصدع بلا إله الا الله ، وان يحتمل هو والقلّة التي تستجيب له كل هذا العناء !

لماذا ؟ ان الله - سبحانه - لا يريد ان يعنّت رسوله والمؤمنين معه . انما هو - سبحانه - يعلم ان ليس هذا هو الطريق ، ليس الطريق ان تخلص الارض من يد طاغوت روماني او طاغوت فارسي ، الى يد طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! ان الارض لله ، ويجب ان تخلص لله ، ولا تخلص لله الا ان ترتفع عليها راية : « لا إله الا الله » . وليس الطريق ان يتحرر الناس في هذه الارض من طاغوت روماني او فارسي ، الى طاغوت عربي . فالطاغوت كله طاغوت ! ان الناس عبيد لله وحده ، ولا يكونون عبيدا لله وحده الا أن ترتفع راية : « لا إله الا الله » - لا إله الا الله كما يدركها العربي العارف بمدلولات لغته ، : لا

حاكمية الا الله ، ولا شريعة الا من الله ، ولا سلطان لأحد على أحد ، لأن السلطان كله لله ، ولأن « الجنسية » التي يريد بها الاسلام للناس هي جنسية العقيدة ، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الاجناس والالوان تحت راية الله .

وهذا هو الطريق ..

وُبعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بهذا الدين ، والمجتمع العربي كأسوا ما يكون المجتمع توزيعا للثروة والعدالة . قلة قليلة تملك المال والتجارة ، وتعامل بالربا فتضاعف تجارتها ومالها . وكثرة كثيرة لا تملك الا الشظف والجوع . والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة ، وجماهير كثيرة ضائعة من المال والمجد جميعا !

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ان يرفعها راية اجتماعية ، وان يثيرها حربا على طبقة الاشراف ، وان يطلقها دعوة تستهدف تعديل الاوضاع ، ورد اموال الاغنياء على الفقراء !

وربما قيل : انه لو دعا يومها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الدعوة ، لانقسم المجتمع العربي صفتين : الكثرة الغالبة مع الدعوة الجديدة في وجه طغيان المال والشرف والجاه ، والقلة القليلة مع هذه الموروثات ، بدلا من ان يقف المجتمع كله صفاً في وجه « لا إله الا الله » التي لم يرتفع الى افقها في ذلك الحين الا الافذاذ من الناس !

وربما قيل : ان محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان

خليقا بعد ان تستجيب له الكثرة ، وتولييه قيادها ، فيغلب بها القلة ويسلس له مقادها ، ان يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في اقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه ، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبدهم لسلطانه البشري !

ولكن الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم ، لم يوجهه هذا التوجيه ..

لقد كان الله - سبحانه - يعلم ان هذا ليس هو الطريق .. كان يعلم أن العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل ، يرد الامر كله لله ، ويقبل عن رضى وعن طوعية ما يقضي به الله من عدالة التوزيع ، ومن تكافل الجميع ، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه سواء انه ينفذ نظاما شرعه الله ، ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء . فلا تمتلئ قلوب بالطمع ، ولا تمتلئ قلوب بالحقد ، ولا تسير الامور كلها بالسيف والعصا ، وبالتخويف والارهاب ! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الارواح ، كما يقع في الاوضاع التي تقوم على غير « لا اله الا الله » .



و'بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمستوى الاخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الاسفل في جوانب منه شتى - الى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخمسة البدوية .

كان التظالم فاشيا في المجتمع ، تعبر عنه حكمة الشاعر
« زهير بن أبي سلمى » :

ومن لم يزد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم
ويعبر عنه القول المتعارف في الجاهلية : « انصر أخاك
ظالما أو مظلوما » .

وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ، ومن
مفاخره كذلك ! يعبر عن هذه الخصلة الشعر الجاهلي
بجملته .. كالذي يقوله طرفة بن العبد :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عوادي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة كميت متى ما 'تعل' بالماء تزبد
وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبذلي وانفاقي طريقي وتالدي
الى ان تحامتنى العشيرة كلها وأفردت افراد البعير المعبد

• • • • •

وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا
المجتمع - شأنه شأن كل مجتمع جاهلي قديم أو حديث -
كالذي روعه عائشة رضي الله عنها :

« ان النكاح في الجاهلية كان على اربعة انحاء : فنكاح
منها نكاح الناس اليوم .. يخطب الرجل الى الرجل وليته
او بنته ، فيصدقها ثم ينكحها .. والنكاح الآخر كان الرجل
يقول لامرأته - اذا طهرت من طمثها - : ارسلني الى فلان
فاستبضعي منه ، ويعتزلها زوجها ولا يمسها ابدا حتى يتبين
حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه ، فاذا تبين حملها
اصابها زوجها اذا أحب ، وانما يفعل ذلك رغبة في نجابة
الولد ! فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .. ونكاح آخر :
يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة ، كلهم
يصيبها . فاذا حملت ووضعت ، ومر عليها ليال بعد ان تضع

حملها ، أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من امركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمي من أحببت باسمه فيلحق به ولدها ، ولا يستطيع ان يمتنع به الرجل . . . والنكاح الرابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها . . . وهن البغايا . . . كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما ، فمن ارادهن دخل عليهن ، فاذا حملت احدهن ووضعت حملها ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ، ثم الحقوا ولدها بالذي يرون ، فالتاطه ، ودعي ابنه لا يمتنع عن ذلك » (١) .

وربما قيل : انه كان في استطاعة محمد - صلى الله عليه وسلم - ان يعلنها دعوة اصلاحية ، تتناول تقويم الاخلاق ، وتطهير المجتمع ، وتزكية النفوس .

وربما قيل : انه - صلى الله عليه وسلم - كان واجدا وقتها - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوسا طيبة يؤذيها هذا الدنس ، وتأخذها الاريحية والذخوة لتلبية دعوة الاصلاح والتطهر .

وربما قال قائل : أنه لو صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك لاستجابت له - في اول الامر - جمهرة صالحة ، تتطهر اخلاقها ، وتزكوا ارواحها ، فتصبح اقرب الى قبول العقيدة وحملها ، بدلا من ان تثير دعوة « لا اله الا الله » المعارضة القوية منذ اول الطريق .

ولكن الله - سبحانه - كان يعلم ان ليس هذا هو الطريق ! كان يعلم ان الاخلاق لا تقوم الا على اساس من

(١) اخرجه البخاري في كتاب النكاح .

عقيدة ، تضع الموازين ، وتقرر القيم ، كما تقرر السلطة التي تستند اليها هذه الموازين والقيم ، والجزاء الذي تملكه هذه السلطة ، وتوقعه على الملتزمين والمخالفين . وانه قبل تقرير هذه العقيدة ، وتحديد هذه السلطة تظل القيم كلها متأرجحة وتظل الاخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك ، بلا ضابط ، وبلا سلطان ، وبلا جزاء !

فلما تقررّت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن اليها هذه العقيدة . . لما عرف الناس ربهم وعبدوه وحده . . لما تحرر الناس من سلطان العبيد ومن سلطان الشهوات سواء . . لما تقررّت في القلوب « لا إله الا الله » . . صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون . . تطهرت الارض من « الرومان والفرس » . . لا ليتقرر فيها سلطان « العرب » . ولكن ليتقرر فيها سلطان « الله » . . لقد تطهرت من سلطان « الطاغوت » كله . . رومانيا ، وفارسيا ، وعربيا ، على السواء .

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته . وقام « النظام الاسلامي » ، يعدل يعدل الله ، ويزن بميزان الله ، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده ، ويسميها راية « الاسلام » . لا يقرن اليها اسما آخر ، ويكتب عليها : « لا إله الا الله » !

وتطهرت النفوس والاخلاق ، وزكت القلوب والارواح ، دون ان يحتاج الامر حتى للحدود والتعازير التي شرعها الله - الا في الندرة النادرة - لأن الرقابة قامت هناك في الضمائر ، ولأن الطمع في رضى الله وثوابه ، والحياة والخوف من غضبه وعقابه ، قد قاما مقام الرقابة ومكان العقوبات . وارتفعت البشرية في نظامها ، وفي اخلاقها ، وفي

حياتها كلها ، الى القمة السامقة التي لم ترتفع اليها من قبل
قط ، والتي لم ترتفع اليها من بعد الا في ظل الاسلام .

ولقد تم هذا كله لأن الذين اقاموا هذا الدين في صورة
دولة ونظام وشرائع واحكام ، كانوا قد اقاموا هذا الدين
من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم ، في صورة عقيدة وخلق
وعبادة وسلوك . وكانوا قد وعدوا على اقامة هذا الدين
وعدا واحدا ، لا يدخل فيه الغلب والسلطان . . ولا حتى
لهذا الدين على ايديهم . . وعدا واحدا لا يتعلق بشيء في
هذه الدنيا . . وعدا واحدا هو الجنة . هذا كل ما وعدوه
على الجهاد المضني ، والابتلاء الشاق ، والمضي في الدعوة ،
ومواجهة الجاهلية بالامر الذي يكرهه اصحاب السلطان في
كل زمان وفي كل مكان ، وهو : « لا اله الا الله » !

فلما ان ابتلاهم الله فصبروا ، ولما ان فرغت نفوسهم
من حظ نفوسهم ، ولما ان علم الله منهم انهم لا ينتظرون
جزاء في هذه الارض - كائنا ما كان هذا الجزاء ، ولو كان
هو انتصار هذه الدعوة على ايديهم ، وقيام هذا الدين في
الارض بجهدهم - ولما لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجهد ولا
قوم ، ولا اعتزاز بوطن ولا ارض ، ولا اعتزاز بعشيرة ولا
بيت . . لما ان علم الله منهم ذلك كله ، علم انهم قد اصبحوا
- اذن - امناء على هذه الامانة الكبرى . . امناء على
العقيدة ، التي يتفرد فيها الله - سبحانه - بالحاكمة في
القلوب والضمائر ، وفي السلوك والشعائر ، وفي الارواح
والأموال ، وفي الأوضاع والأحوال . . وأمناء على السلطان
الذي يوضع في ايديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها ،
وعلى عدل الله يقيمونه ، دون ان يكون لهم من ذلك السلطان
شيء لأنفسهم ، ولا لعشيرتهم ، ولا لقومهم ، ولا لجنسهم .
انما يكون السلطان الذي في ايديهم لله ، ولدينه وشريعته ،

لأنهم يعلمون انه من الله ، هو الذي آتاهم اياه .

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع ، الا ان تبدأ الدعوة ذلك البدء . والا ان ترفع الدعوة هذه الراية وحدها . . راية لا اله الا الله . . ولا ترفع معها سواها . والا ان تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ، المبارك الميسر في حقيقته .

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله ، لو ان الدعوة بدأت خطواتها الاولى دعوة قومية ، أو دعوة اجتماعية ، أو دعوة اخلاقية . . أو رفعت اي شعار الى جانب شعارها الواحد : « لا اله الا الله » .



ذلك شأن القرآن المكي كله في تقرير : « لا اله الا الله » في القلوب والعقول ، واختيار هذا الطريق - على مشقته في الظاهر - وعدم اختيار السبيل الجانبية الاخرى ، والاصرار على هذا الطريق .

فأما شأن هذا القرآن في تناول قضية الاعتقاد وحدها ، دون التطرق الى تفصيلات النظام الذي يقوم عليها ، والشرائع التي تنظم المعاملات فيها ، فذلك كذلك مما ينبغي ان يقف امامه اصحاب الدعوة لهذا الدين وقفة واعية .

ان طبيعة هذا الدين هي التي قضت بهذا . . فهو دين يقوم كله على قاعدة الالوهية الواحدة . . كل تنظيماته وكل تشريعاته تنبثق من هذا الاصل الكبير . . وكما ان الشجرة الضخمة الباسقة ، الوارفة المديدة الظلال ، المتشابكة الاغصان ، الضاربة في الهواء . . لا بد لها ان تضرب بجذورها في التربة على اعماق بعيدة ، وفي مساحات واسعة ، تناسب

ضخامتها وامتدادها في الهواء . . فكذا هذا الدين . . ان نظامه يتناول الحياة كلها ، ويتولى شؤون البشرية كبرها وصغيرها ، وينظم حياة الانسان - لا في الحياة الدنيا وحدها ولكن كذلك في الدار الآخرة ، ولا في عالم الشهادة وحده ولكن كذلك في عالم الغيب المكنون عنها ، ولا في المعاملات المادية الظاهرة وحدها ولكن كذلك في اعماق الضمير ودنيا السرائر والنوايا - فهو مؤسسة ضخمة هائلة شاسعة مترامية ، ولا بد له اذن من جذور واعماق بهذه السعة والضخامة والعمق والانتشار ايضا . .

هذا جانب من سر هذا الدين وطبيعته ، يحدد منهجه في بناء نفسه وفي امتداده ، ويجعل بناء العقيدة وتمكينها ، وشمول هذه العقيدة واستغراقها لشعاب النفس كلها . . ضرورة من ضروريات النشأة الصحيحة ، وضمانا من ضمانات الاحتمال ، والتناسق بين الظاهر من الشجرة في الهواء والضارب من جذورها في الاعماق .

ومتى استقرت عقيدة : « لا إله الا الله » في اعماقها الغائرة البعيدة ، استقر معها في نفس الوقت النظام الذي تتمثل فيه « لا اله الا الله » ، وتعين انه النظام الوحيد الذي ترتضيه النفوس التي استقرت فيها العقيدة ، واستسلمت هذه النفوس ابتداء لهذا النظام ، حتى قبل ان تعرض عليها تفصيلاته ، وقبل ان تعرض عليها تشريعاته . فالاستسلام ابتداء هو مقتضى الايمان . . وبمثل هذا الاستسلام تلقت النفوس - فيما بعد - تنظيمات الاسلام وتشريعاته بالرضى والقبول ، لا تعترض على شيء منه فور صدوره اليها ، ولا تتلکأ في تنفيذه بمجرد تلقيها له . . وهكذا ابطلت الخمر ، وابطل الربا ، وابطل الميسر ، وابطلت العادات الجاهلية كلها . . ابطلت بآيات من القرآن ، او كلمات من الرسول

— صلى الله عليه وسلم — بينما الحكومات الارضية تجهد في شيء من هذا كله بقوانينها وتشريعاتها، ونظمها وأوضاعها، وجندها وسلطاتها ، ودعايتها واعلامها ، فلا تبلغ الا أن تضبط الظاهر من المخالفات ، بينما المجتمع يعجز بالمنهيات والمنكرات (١) !



وجانب آخر من طبيعة هذا الدين يتجلى في هذا المنهج القويم . ان هذا الدين منهج عملي حركي جاد . . جاء ليحكم الحياة في واقعها ، ويواجه هذا الواقع ليقضي فيه بأمره . . يقره ، او يعدله ، أو يغيره من أساسه . . ومن ثم فهو لا يشرع الا لحالات واقعة فعلا ، في مجتمع يعترف ابتداءً بحاكمية الله وحده . .

انه ليس « نظرية » تتعامل مع « الفروض » ! . . انه « منهج » ، يتعامل مع « الواقع » ! . . فلا بد اولا ان يقوم المجتمع المسلم الذي يقر عقيدة : ان لا إله إلا الله ، وأن الحاكمية ليست الا لله ويرفض أن يقر بالحاكمية لأحد من دون الله ، ويرفض شرعية اي وضع لا يقوم على هذه القاعدة . .

وحين يقوم هذا المجتمع فعلا ، تكون له حياة واقعية ، تحتاج الى تنظيم وإلى تشريع . . وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير النظم وفي سن الشرائع لقوم مستسلمين أصلا للنظم والشرائع ، رافضين أصلا لغيرها من النظم والشرائع . .

(١) يراجع كيف حرم الله الخمر في الجزء الخامس من الطبعة المنقحة من كتاب : « في ظلال القرآن » ص ٧٨ — ص ٨٥ . وكيف عجزت اميركا عن ذلك في كتاب : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » للسيد ابي الحسن الندوي منقولا عن كتاب (تنقيحات) للسيد ابي الاعلى المودودي .

المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

ولا بد أن يكون للمؤمنين بهذه العقيدة من سلطان على أنفسهم وعلى مجتمعهم ما يكفل تنفيذ النظام والشرائع في هذا المجتمع حتى يكون للنظام هيبتة ، ويكون للشرعية جديتها . . فوق ما يكون لحياة هذا المجتمع من واقعية تقتضي الانظمة والشرائع من فورها . .

والمسلمون في مكة لم يكن لهم سلطان على أنفسهم ولا على مجتمعهم . وما كانت لهم حياة واقعية مستقلة هم الذين ينظمونها بشرعية الله . . ومن ثم لم ينزل الله لهم في هذه الفترة تنظيمات وشرائع ، وانما نزل لهم عقيدة ، وخلقاً منبثقا من هذه العقيدة بعد استقرارها في الاعماق البعيدة . . فلما ان صارت لهم دولة في المدينة ذات سلطان ، تنزلت عليهم الشرائع ، وتقرر لهم النظام الذي يواجه حاجات المجتمع المسلم الواقعية ، والذي تكفل له الدولة بسلطاتها الجدية النفاذ .

ولم يشأ الله ان ينزل عليهم النظام والشرائع في مكة ، ليختزنوها جاهزة حتى تطبق بمجرد قيام الدولة في المدينة ! ان هذه ليست طبيعة هذا الدين ! . . انه اشد واقعية من هذا واكثر جدية ! . . انه لا يفترض المشكلات ليفترض لها حلولا . . انما يواجه الواقع حين يكون واقع مجتمع مسلم مستسلم لشرعية الله رافض لشرعية سواه بحجمه وشكله وملابساته وظروفه ، ليشرع له ، وفق حجمه وشكله وملابساته وظروفه .

والذين يريدون من الاسلام اليوم ان يصوغ نظريات وأن يصوغ قوالب نظام ، وان يصوغ تشريعات للحياة . . بينما ليس على وجه الارض مجتمع قد قرر فعلا تحكيم شرعية الله وحدها ، ورفض كل شرعية سواها ، مع تملكه للسلطة التي تفرض هذا وتنفذه . . الذين يريدون من

الاسلام هذا ، لا يدركون طبيعة هذا الدين ، ولا كيف يعمل في الحياة .. كما يريد له الله ..

انهم يريدون منه ان يغير طبيعته ومنهجه وتاريخه ليشابه نظريات بشرية ، ومناهج بشرية ، ويحاولون ان يستعجلوه عن طريقه وخطواته ليلبي رغبات وقتية في نفوسهم ، رغبات انما تنشئها الهزيمة الداخلية في ارواحهم تجاه أنظمة بشرية صغيرة .. يريدون منه ان يصوغ نفسه في قالب نظريات وفروض ، تواجهه مستقبلا غير موجود .. والله يريد لهذا الدين ان يكون كما اراده .. عقيدة تملأ القلب ، وتفرض سلطانها على الضمير ، عقيدة مقتضاها الا يخضع الناس الا لله ، والا يتلقوا الشرائع الا منه دون سواه .. وبعد ان يوجد الناس الذين هذه عقيدتهم ، ويصبح لهم السلطان الفعلي في مجتمعهم ، تبدأ التشريعات لمواجهة حاجاتهم الواقعية ، وتنظيم حياتهم الواقعية كذلك .

هذا ما يريده الله لهذا الدين .. ولن يكون الا ما يريده الله ، مهما كانت رغبات الناس !

كذلك ينبغي أن يكون مفهوما لأصحاب الدعوة الاسلامية أنهم حين يدعون الناس لاعادة انشاء هذا الدين ، يجب أن يدعوهم أولا الى اعتناق العقيدة - حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد لهم شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ! - يجب أن يعلموهم أن الاسلام هو « اولا » اقرار عقيدة : « لا اله الا الله » - بمدلولها الحقيقي ، وهو رد الحاكمية لله في أمرهم كله ، وطرده المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم ، اقرارها في ضمائرهم وشعائرهم ، واقرارها في أوضاعهم وواقعهم ..

ولتكن هذه القضية هي أساس دعوة الناس الى الاسلام ، كانت هي أساس دعوتهم الى الاسلام اول مرة .. هذه

الدعوة التي تكفل بها القرآن المكي طوال ثلاثة عشر عاما كاملة .. فاذا دخل في هذا الدين - بمفهومه هذا الاصيل - عصابة من الناس .. فهذه العصابة هي التي يطلق عليها اسم « المجتمع المسلم » .. المجتمع الذي يصلح لمزاولة النظام الاسلامي في حياته الاجتماعية ، لأنه قرر بينه وبين نفسه ان تقوم حياته كلها على هذا الاساس ، والا يحكم في حياته كلها الا الله .

وحين يقوم هذا المجتمع بالفعل يبدأ عرض اسس النظام الاسلامي عليه ، كما يأخذ هذا المجتمع نفسه في سنن التشريعات التي تقتضيها حياته الواقعية ، في اطار الاسس العامة للنظام الاسلامي .. فهذا هو الترتيب الصحيح لخطوات المنهج الاسلامي الواقعي العملي الجاد .

ولقد يخيل لبعض المخلصين المتعجلين ، ممن لا يتدبرون طبيعة هذا الدين ، وطبيعة منهجه الرباني القويم ، المؤسس على حكمة العليم الحكيم ، وعلمه بطبائع البشر وحاجات الحياة .. نقول : لقد يخيل لبعض هؤلاء ان عرض اسس النظام الاسلامي - بل التشريعات الاسلامية كذلك - على الناس ، مما ييسر لهم طريق الدعوة ، ويحبب الناس في هذا الدين !

وهذا وهم تنشئه العجلة ! وهم كالذي كان يمكن ان يقترحه المقترحون : ان تقوم دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اولها تحت راية قومية ، او راية اجتماعية ، او راية اخلاقية ، تيسيرا للطريق !

ان القلوب يجب ان تخلص اولاً لله ، وتعلن عبوديتها له وحده ، بقبول شرعه وحده ، ورفض كل شرع آخر غيره .. من ناحية المبدأ .. قبل ان تخاطب بأي تفصيل عن ذلك الشرع يرغبها فيه !

ان الرغبة يجب ان تنبثق من اخلاص العبودية لله ،
والتححرر من سلطان سواء ، لا من أن النظام المعروض
عليها .. في ذاته .. خير مما لديها من الانظمة في كذا
وكذا على وجه التفصيل .

ان نظام الله خير في ذاته ، لانه من شرع الله .. ولن
يكون شرع العبيد يوما كشرع الله .. ولكن هذه ليست
قاعدة الدعوة . ان قاعدة الدعوة ان قبول شرع الله وحده
ايا كان ، ورفض كل شرع غيره ايا كان ، هو ذاته الاسلام ،
وليس للاسلام مدلول سواء ، فمن رغب في الاسلام ابتداء
فقد فصل في القضية ، ولم يعد بحاجة الى ترغيبه بجمال
النظام وأفضليته .. فهذه احدى بديهيات الايمان!



وبعد ، فلا بد ان نقول كيف عالج القرآن المكي قضية
العقيدة في خلال الثلاثة عشر عاما .. انه لم يعرضها في
صورة « نظرية » ولا في صورة « لاهوت » ! ولم يعرضها في
صورة جدل كلامي كالذي زاوله ما يسمى « علم التوحيد » !

كلا ! لقد كان القرآن الكريم يخاطب فطرة « الانسان »
بما في وجوده هو وبما في الوجود حوله من دلائل
وايحاءات .. كان يستنقذ فطرته من الركام ، ويخلص أجهزة
الاستقبال الفطرية مما ران عليها وعطل وظائفها ، ويفتح
منافذ الفطرة ، لتتلقى الموحيات المؤثرة وتستجيب لها .

هذا بصفة عامة .. وبصفة خاصة كان القرآن يخوض
بهذه العقيدة معركة حية واقعية .. كان يخوض بها معركة
مع الركام المعطل للفطرة في نفوس آدمية حاضرة
واقعة .. ومن ثم لم يكن شكل « النظرية » هو الشكل

الذي يناسب هذا الواقع الخاص . انما هو شكل المواجهة الحية للعقائيل والسدود والحواجز والمعوقات النفسية والواقعية في النفوس الحاضرة الحية . . ولم يكن الجدل الذهني - القائم على المنطق الشكلي - الذي سار عليه في العصور المتأخرة علم التوحيد ، هو الشكل المناسب كذلك . . فلقد كان القرآن يواجه « واقعا » بشريا كاملا بكل ملابساته الحية ، ويخاطب الكينونة البشرية بجملتها في خضم هذا الواقع . . وكذلك لم يكن « اللاهوت » هو الشكل المناسب . فان العقيدة الاسلامية ، ولو أنها عقيدة ، الا أنها تمثل منهج حياة واقعية للتطبيق العملي ، ولا تقبع في الزاوية الضيقة التي تقبع فيها الابحاث اللاهوتية النظرية !

كان القرآن ، وهو يبني العقيدة في ضمائر الجماعة المسلمة ، يخوض بهذه الجماعة المسلمة معركة ضخمة مع الجاهلية من حولها ، كما يخوض بها معركة ضخمة مع رواسب الجاهلية في ضميرها هي وأخلاقها وواقعها . . ومن هذه الملابس ظهر بناء العقيدة لا في صورة « نظرية » ولا في صورة « لاهوت » ، ولا في صورة « جدل كلامي » . . ولكن في صورة تجمع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة ، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها ، وكان نمو الجماعة المسلمة في تصورها الاعتقادي ، وفي سلوكها الواقعي وفق هذا التصور ، وفي دربتها على مواجهة الجاهلية كمنظمة محاربة لها . . كان هذا النمو ذاته ممثلا تماما لنمو البناء العقائدي ، وترجمة حية له . . وهذا هو منهج الاسلام الذي يمثل طبيعته كذلك .

وانه لمن الضروري لاصحاب الدعوة الاسلامية ان يدركوا طبيعة هذا الدين ومنهجه في الحركة على هذا النحو الذي بيناه . ذلك ليعلموا ان مرحلة بناء العقيدة التي طالت

في العهد المكي على هذا النحو ، لم تكن منعزلة عن مرحلة التكوين العملي للحركة الاسلامية ، والبناء الواقعي للجماعة المسلمة . لم تكن مرحلة تلقّي « النظرية » ودراستها ! ولكنها كانت مرحلة البناء القاعدي للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعلي معا . . . وهكذا ينبغي أن تكون كلما أريد إعادة هذا البناء مرة أخرى .

هكذا ينبغي ان تطول مرحلة بناء العقيدة ، وان تتم خطوات البناء على مهل ، وفي عمق وثبت . . ثم هكذا ينبغي ألا تكون مرحلة دراسة نظرية للعقيدة ، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة - أولا بأول - في صورة حية ، متمثلة في ضمائر متكيفة بهذه العقيدة ومتمثلة في بناء جماعي وتجمع حركي ، يعبر نموه من داخله ومن خارجه عن نمو العقيدة ذاتها ، ومتمثلة في حركة واقعية تواجه الجاهلية ، وتخوض معها المعركة في الضمير وفي الواقع كذلك ، لتمثل العقيدة حية ، وتنمو نموا حيا في خضم المعركة .

وخطأ أي خطأ - بالقياس الى الاسلام - أن تبسور العقيدة في صورة « نظرية » مجردة للدراسة الذهنية . . المعرفية الثقافية . . بل خطر أي خطر كذلك .

ان القرآن لم يقض ثلاثة عشر عاما كاملة في بناء العقيدة بسبب انه كان يتنزل للمرة الاولى . . كلا ! فلو أراد الله لأنزل هذا القرآن جملة واحدة ، ثم ترك اصحابه يدرسونه ثلاثة عشر عاما ، أو أكثر أو أقل ، حتى يستوعبوا « النظرية الاسلامية » .

ولكن الله - سبحانه - كان يريد امرا آخر ، كان يريد منهجا معيناً متفردا . . كان يريد بناء جماعة وبناء حركة وبناء عقيدة في وقت واحد . . كان يريد ان يبني

الجماعة والحركة بالعقيدة ، وان يبني العقيدة بالجماعة والحركة . . كان يريد ان تكون العقيدة هي واقع الجماعة الحركي الفعلي ، وان يكون واقع الجماعة الحركي الفعلي هو الصورة المجسمة للعقيدة . . وكان الله - سبحانه - يعلم أن بناء النفوس والجماعات لا يتم بين يوم وليلة ، فلم يكن هنالك بد أن يستغرق بناء العقيدة المدى الذي يستغرقه بناء النفوس والجماعة . . حتى اذا نضج التكوين العقيدي كانت الجماعة هي المظهر الواقعي لهذا النضوج .



هذه هي طبيعة هذا الدين - كما تستخلص من منهج القرآن المكي - ولا بد أن نعرف طبيعته هذه ، وألا نحاول تغييرها تلبية لرغبات معجلة مهزومة امام اشكال النظريات البشرية ! فهو بهذه الطبيعة صنع الامة المسلمة أول مرة ، وبها يصنع الامة المسلمة في كل مرة يراد فيها أن يعاد اخراج الامة المسلمة للوجود كما اخرجها الله اول مرة .

يجب أن ندرك خطأ المحاولة وخطرها معا ، في تحويل العقيدة الاسلامية الحية التي تحب أن تتمثل في واقع نام حي متحرك ، وفي تجمع عضوي حركي . . تحويلها عن طبيعتها هذه الى « نظرية » للدراسة والمعرفة الثقافية ، لمجرد أننا نريد أن نواجه النظريات البشرية الهزيلة بـ « نظرية اسلامية » .

ان العقيدة الاسلامية تحب أن تتمثل في نفوس حية ، وفي تنظيم واقعي ، وفي تجمع عضوي ، وفي حركة تتفاعل مع الجاهلية من حولها ، كما تتفاعل مع الجاهلية الراسبة في نفوس أصحابها - بوصفهم كانوا من أهل الجاهلية قبل ان تدخل العقيدة الى نفوسهم ، وتنتزعها من الوسط الجاهلي

– وهي في صورتها هذه تشغل من القلوب والعقول – ومن الحياة ايضاً – مساحة أضخم وأوسع وأشمل مما تشغله « النظرية » . وتشمل – فيما تشمل – مساحة النظرية ومادتها، ولكنها لا تقتصر عليها .

ان التصور الاسلامي للالوهية ، وللوجود الكوني ، وللحياة ، وللانسان . . تصور شامل كامل . ولكنه كذلك تصور واقعي ايجابي . وهو يكره – بطبيعته – ان يتمثل في مجرد تصور ذهني معرفي ، لان هذا يخالف طبيعته وغايته . ويجب ان يتمثل في اناسي ، وفي تنظيم حي ، وفي حركة واقعية . . وطريقته في التكون ان ينمو من خلال الاناسي والتنظيم الحي والحركة الواقعية ، حتى يكتمل نظرياً في نفس الوقت الذي يكتمل فيه واقعياً – ولا ينفصل في صورة « النظرية » بل يظل ممثلاً في صورة « الواقع » الحركي . .

وكل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ، ولا يتمثل من خلاله ، هو خطأ وخطر كذلك ، بالقياس الى طبيعة هذا الدين وغايته ، وطريقة تركيبه الذاتي .

والله – سبحانه – يقول :

« وقرآنًا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً » . . .

(الاسراء : ١٠٦)

فالفرق مقصود . والمكث مقصود كذلك ، ليتم البناء التكويني ، المؤلف من عقيدة في صورة « منظمة حية » ، لا في صورة « نظرية » !

يجب أن يعرف أصحاب هذا الدين جيداً أنه – كما انه في ذاته دين رباني – فان منهجه في العمل منهج رباني

كذلك • متواف مع طبيعته ، وانه لا يمكن فصل حقيقة هذا الدين عن منهجه في العمل •

ويجب أن يعرفوا كذلك ان هذا الدين - كما أنه جاء ليغير التصور الاعتقادي ، ومن ثم يغير الواقع الحيوي - فكذلك هو قد جاء ليغير المنهج الذي يبني به التصور الاعتقادي ، ويغير به الواقع الحيوي •• جاء ليبني عقيدة وهو يبني أمة •• ثم لينشئ منهج تفكير خاصا به ، بنفس الدرجة التي ينشئ بها تصورا اعتقاديا وواقعا حيويا • ولا انفصال بين منهج تفكيره الخاص ، وتصوره الاعتقادي الخاص ، وبنائه الحيوي الخاص •• فكلها حزمة واحدة ••

فاذا نحن عرفنا منهجه في العمل على النحو الذي بيناه ، فلنعرف أن هذا المنهج أصيل ، وليس منهج مرحلة ولا بيئة ولا ظروف خاصة بنشأة الجماعة المسلمة الاولى ، انما هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين - في اي وقت - الا به •

انه لم تكن وظيفة الاسلام ان يغير عقيدة الناس وواقعهم فحسب ، ولكن كانت وظيفته كذلك ان يغير منهج تفكيرهم ، وتناولهم للتصور وللواقع ، ذلك انه منهج رباني مخالف في طبيعته كلها لمنهج البشر القاصرة الهزيلة •

ونحن لا نملك ان نصل الى التصور الرباني والى الحياة الربانية ، الا عن طريق منهج تفكير رباني كذلك ، المنهج الذي اراد الله ان يقيم منهج تفكير الناس على اساسه ، ليصح تصورهم الاعتقادي وتكوينهم الحيوي •

نحن ، حين نريد من الاسلام ان يجعل من نفسه « نظرية » للدراسة ، نخرج به عن طبيعة منهج التكوين

الرباني ، وعن طبيعة منهج التفكير الرباني كذلك ، ونخضع
الاسلام لمناهج التفكير البشرية ! كأنما المنهج الرباني أدنى
من المناهج البشرية ! وكأنما نريد لترتقي بمنهج الله في
التصور والحركة ليوازي مناهج العبيد !
والامر من هذه الناحية يكون خطيرا ، والهزيمة تكون
قاتلة .

ان وظيفة المنهج الرباني أن يعطينا - نحن أصحاب
الدعوة الاسلامية - منهجا خاصا للتفكير ، نبرأ به من
رواسب مناهج التفكير الجاهلية السائدة في الارض ، والتي
تضغط على عقولنا ، وترسب في ثقافتنا .. فاذا نحن أردنا
ان نتناول هذا الدين بمنهج تفكير غريب عن طبيعته ، من
مناهج التفكير الجاهلية الغالبة ، كنا قد أبطلنا وظيفته التي
جاء ليؤديها للبشرية ، وحرمنا انفسنا فرصة الخلاص من
ضغط المنهج الجاهلي السائد في عصرنا ، وفرصة الخلاص
من رواسبه في عقولنا وتكويننا .

والامر من هذه الناحية يكون خطيرا كذلك ، والخسارة
تكون قاتلة .

ان منهج التفكير والحركة في بناء الاسلام ، لا يقل قيمة
ولا ضرورة عن منهج التصور الاعتقادي والنظام الحيوي ،
ولا ينفصل عنه كذلك . ومهما يخطر لنا أن نقدم هذا التصور
وهذا النظام في صورة تعبيرية ، فيجب الا يغيب عن بالنا ان
هذا لا ينشئ « الاسلام » في الارض في صورة حركة واقعية ،
بل يجب ألا يغيب عن بالنا انه لن يفيد من تقديمنا الاسلام
في هذه الصورة الا المشتغلون فعلا بحركة اسلامية واقعية ،
وان قصارى ما يفيد هؤلاء انفسهم من تقديم الاسلام لهم
في هذه الصورة هو ان يتفاعلوا معها بالقدر الذي وصلوا هم
اليه فعلا في اثناء الحركة .

ومرة أخرى أكرر ان التصور الاعتقادي يجب ان يتمثل من فوره في تجمع حركي ، وان يكون التجمع الحركي في الوقت ذاته تمثيلا صحيحا وترجمة حقيقية للتصور الاعتقادي .

ومرة أخرى اكرر كذلك ان هذا هو المنهج الطبيعي للاسلام الرباني ، وانه منهج أعلى وأقوم ، وأشد فاعلية ، واكثر انطباقا على الفطرة البشرية من منهج صياغة النظريات كاملة مستقلة وتقديمها في الصورة الذهنية الباردة للناس ، قبل أن يكون هؤلاء الناس مشغولين فعلا بحركة واقعية، وقبل ان يكونوا هم أنفسهم ترجمة حية ، تنمو خطوة خطوة لتمثيل ذلك المفهوم النظري .



واذا صح هذا في أصل النظرية فهو اصح بطبيعة الحال فيما يختص بتقديم اسس النظام الذي يتمثل فيه التصور الاسلامي ، أو تقديم التشريعات المفصلة لهذا النظام . ان الجاهلية التي حولنا - كما أنها تضغط على اعصاب بعض المخلصين من اصحاب الدعوة الاسلامية ، فتجعلهم يتعجلون خطوات المنهج الاسلامي - هي كذلك تعتمد احيانا ان تخرجهم . فتسألهم : أين تفاصيل نظامكم الذي تدعون اليه ؟ وماذا اعددتم لتنفيذه من بحوث ومن دراسات ومن فقه مقنن على الاصول الحديثة ! كأن الذي ينقص الناس في هذا الزمان لاقامة شريعة الاسلام في الارض هو مجرد الاحكام الفقهية والبحوث الفقهية الاسلامية . وكأنما هم مستسلمون لحاكمية الله راضون بأن تحكمهم شريعته ، ولكنهم فقط لا يجدون من « المجتهدين » فقها مقننا بالطريقة الحديثة ! .. وهي سخرية هازلة يجب ان يرتفع عليها كل ذي قلب يحس لهذا الدين بحرمة !

ان الجاهلية لا تريد بهذا الاحراج الا أن تجد لنفسها
تعلة في نبذ شريعة الله ، واستبقاء عبودية البشر للبشر ..
والا أن تصرف العصبية المسلمة عن منهجها الرباني ، فتجعلها
تتجاوز مرحلة بناء العقيدة في صورة حركية ، وأن تحول
منهج أصحاب الدعوة الاسلامية عن طبيعته التي تتبلور فيها
النظرية من خلال الحركة ، وتتحدد ملامح النظام من خلال
الممارسة ، وتسبب فيها التشريعات في مواجهة الحياة الاسلامية
الواقعية بمشكلاتها الحقيقية .

ومن واجب أصحاب الدعوة الاسلامية الا يستجيبوا
للمناورة ! من واجبهم ان يرفضوا املاء منهج غريب على
حركتهم وعلى دينهم ! من واجبهم الا يستخفهم الذين لا
يوقنون !

ومن واجبهم ان يكشفوا مناورة الاحراج ، وان يستعلوا
عليها ، وان يرفضوا السخرية الهازلة في ما يسمى « تطوير
الفقه الاسلامي » في مجتمع لا يعلن خضوعه لشريعة الله
ورفضه لكل شريعة سواها . من واجبهم ان يرفضوا هذه
التلهية عن العمل الجاد .. التلهية باستنبات البذور في
الهواء .. وأن يرفضوا هذه الخدعة الخبيثة !

ومن واجبهم أن يتحركوا وفق منهج هذا الدين في
الحركة . فهذا من اسرار قوته . وهذا هو مصدر قوتهم
كذلك .

ان « المنهج » في الاسلام يساوي « الحقيقة » . ولا
انقسام بينهما . وكل منهج غريب لا يمكن أن يحقق الاسلام
في النهاية . والمناهج الغربية يمكن ان تحقق أنظمتها
البشرية . ولكنها لا يمكن أن تحقق منهجنا . فالتزام المنهج
ضروري كالتزام العقيدة والتزام النظام في كل حركة
اسلامية ..

« ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ..

نَشَأَةُ الْمُجْتَمَعِ الْمُسْلِمِ وَخَصَائِصُهُ

ان الدعوة الاسلامية - على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - انما تمثل الحلقة الاخيرة من سلسلة الدعوة الطويلة الى الاسلام بقيادة موكب الرسل الكرام . . وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشري كانت تستهدف امرا واحدا : هو تعريف الناس بالههم الواحد وربهم الحق ، وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق . . ولم يكن الناس - فيما عدا افرادا معدودة في فترات قصيرة - ينكرون مبدأ الالهية ويجحدون وجود الله البتة ، انما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة اخرى : إما في صورة الاعتقاد والعبادة ، وإما في صورة الحاكمية والاتباع ، وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله ، الذي كانوا يعرفونه على يد كل رسول ، ثم ينكرونه اذا طال عليهم الامد ، ويرتدون الى الجاهلية التي أخرجهم منها ، ويعودون الى الشرك بالله مرة اخرى . اما في الاعتقاد والعبادة ، واما في الاتباع والحاكمية . واما فيها جميعا . .

هذه طبيعة الدعوة الى الله على مدار التاريخ البشري . انها تستهدف « الاسلام » . . اسلام العباد لرب العباد ، واخراجهم من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، باخراجهم من سلطان العباد في حاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، الى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده في كل شأن من شؤون الحياة . . وفي هذا جاء الاسلام على يد محمد صلى

الله عليه وسلم ، كما جاء على ايدي الرسل الكرام قبله . .
 جاء ليرد الناس الى حاكمية الله كشأن الكون كله الذي
 يحتوي الناس ، فيجب ان تكون السلطة التي تنظم حياتهم هي
 السلطة التي تنظم وجوده ، فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان
 وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذي يصرف الكون
 كله . بل الذي يصرف وجودهم هم انفسهم في غير الجانب
 الارادي من حياتهم . فالناس محكومون بقوانين فطرية من
 صنع الله في نشأتهم ونموهم ، وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم
 وموتهم ، كما هم محكومون بهذه القوانين في اجتماعهم
 وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها ، وهم
 لا يملكون تغيير سنة الله في القوانين الكونية التي تحكم هذا
 الكون وتصرفه . ومن ثم ينبغي ان يثوبوا الى الاسلام في
 الجانب الارادي من حياتهم ، فيجعلوا شريعة الله هي الحاكمة
 في كل شأن من شؤون هذه الحياة ، تنسيقا بين الجانب
 الارادي في حياتهم والجانب الفطري ، وتنسيقا بين وجودهم
 كله بشطريه هذين وبين الوجود الكوني (١) .

ولكن الجاهلية التي تقوم على حاكمية البشر للبشر ،
 والشذوذ بهذا عن الوجود الكوني ، والتصادم بين منهج
 الجانب الارادي في حياة الانسان والجانب الفطري . . هذه
 الجاهلية التي واجهها كل رسول بالدعوة الى الاسلام لله
 وحده ، والتي واجهها رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 بدعوته . . هذه الجاهلية لم تكن متمثلة في « نظرية » مجردة .
 بل ربما احيانا لم تكن لها « نظرية » على الاطلاق ! انما
 كانت متمثلة دائما في تجمع حركي . متمثلة في مجتمع ،
 خاضع لقيادة هذا المجتمع ، وخاضع لتصوراته وقيمه

(١) يراجع بتوسع في هذه النقطة كتاب « مبادئ الاسلام » للسيد

ابي الأعلى المودي أمير الجماعة الاسلامية في باكستان .

ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته • وهو مجتمع عضوي بين أفراد ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوي ، الذي يجعل هذا المجتمع يتحرك - بإرادة واعية أو غير واعية - للمحافظة على وجوده ، والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التي تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان في أية صورة من صور التهديد •

ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في « نظرية » مجردة ، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو ، فإن محاولة الغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز - ولا يجدي شيئا - أن تتمثل في « نظرية » مجردة • فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا والمتمثلة في تجمع حركي عضوي ، فضلا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة محاولة الغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته • بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية ، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلا •

والقاعدة النظرية التي يقوم عليها الإسلام - على مدار التاريخ البشري - هي قاعدة : « شهادة أن لا إله إلا الله » أي أفراد الله - سبحانه - بالالوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية • • أفراد بها اعتقادا في الضمير ، وعبادة في الشعائر ، وشرعية في واقع الحياة • فشهادة أن لا إله إلا الله ، لا توجد فعلا ، ولا تعتبر موجودة شرعا إلا في هذه الصورة المتكاملة التي تعطيها وجودا جديا حقيقيا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم •

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية • • أن

تعود حياة البشر بجملتها الى الله ، لا يقضون هم في اي شأن من شؤونها ، ولا في اي جانب من جوانبها ، من عند انفسهم ، بل لا بد لهم ان يرجعوا الى حكم الله فيها ليتبعوه . . . وحكم الله هذا يجب ان يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم اياه ، وهو رسول الله . وهذا يتمثل في شطر الشهادة الثاني من ركن الاسلام الاول : « شهادة ان محمدا رسول الله » .

هذه هي القاعدة النظرية التي يتمثل فيها الاسلام ويقوم عليها . . . وهي تنشئ منهجا كاملا للحياة حين تطبق في شؤون الحياة كلها ، يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية في داخل دار الاسلام وخارجها ، في علاقاته بالمجتمع المسلم وفي علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الاخرى (١) .

ولكن الاسلام - كما قلنا - لم يكن يملك ان يتمثل في « نظرية » مجردة ، يعتنقها من يعتنقها اعتقادا ويزاولها عبادة ، ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفرادا ضمن الكيان العضوي للتجمع الحركي الجاهلي القائم فعلا . فان وجودهم على هذا النحو - مهما كثر عددهم - لا يمكن ان يؤدي الى « وجود فعلي » للاسلام ، لان الافراد « المسلمون نظريا » الداخلين في التركيب العضوي للمجتمع الجاهلي سيظلون مضطرين حتما للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية . . . سيتحركون - طوعا أو كرها ، بوعي أو بغير وعي - لقضاء الحاجات الاساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده ، وسيدافعون عن كيانه ، وسيدفعون العوامل التي تهدد وجوده وكيانه ، لان الكائن العضوي يقوم بهذه الوظائف بكل

(١) راجع فصل « لا اله الا الله منهج حياة » .

أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا . . أي ان الافراد « المسلمين نظريا » سيظلون يقومون « فعلا » بتقوية المجتمع الجاهلي الذي يعملون « نظريا » لازالته ، وسيظلون خلايا حية في كيانه تملئه بعناصر البقاء والامتداد ! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى ، وذلك بدلا من ان تكون حركتهم في اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلي لاقامة المجتمع الاسلامي !

ومن ثم لم يكن بد ان تتمثل القاعدة النظرية للاسلام (اي العقيدة) في تجمع عضوي حركي منذ اللحظة الاولى . . لم يكن بد ان ينشأ تجمع عضوي حركي آخر غير التجمع الجاهلي ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوي الحركي الجاهلي الذي يستهدف الاسلام الغاءه ، وان يكون محور التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن بعده في كل قيادة اسلامية تستهدف رد الناس الى الوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته - وان يخلع كل من يشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ولاءه من التجمع الحركي الجاهلي - اي التجمع الذي جاء منه - ومن قيادة ذلك التجمع - في اية صورة كانت ، سواء كانت في صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن اليهم ، او في صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتي كانت لقريش - وان يحصر ولاءه في التجمع العضوي الحركي الاسلامي الجديد ، وفي قيادته المسلمة .

ولم يكن بد ان يتحقق هذا منذ اللحظة الاولى لدخول المسلم في الاسلام ، ولنطقه بشهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، لان وجود المجتمع المسلم لا يتحقق الا بهذا . لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية في قلوب افراد

مهما تبلغ كثرتهم ، لا يتمثلون في تجمع عضوي متناسق متعاون ، له وجود ذاتي مستقل ، يعمل أعضاؤه عملا عضويا - كأعضاء الكائن الحي - على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ، وفي الدفاع عن كيانه ضد العوامل التي تهاجم وجوده وكيانه ، ويعملون هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلي ، تنظم حركتهم وتنسقها ، وتوجههم لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الاسلامي ، ولمكافحة ومقاومة وازالة الوجود الآخر الجاهلي .

وهكذا وجد الاسلام .. هكذا وجد متمثلا في قاعدة نظرية مجملية - ولكنها شاملة - يقوم عليها في نفس اللحظة تجمع عضوي حركي ، مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجد قط في صورة « نظرية » مجردة عن هذا الوجود الفعلي .. وهكذا يمكن ان يوجد الاسلام مرة اخرى ، ولا سبيل لاعادة انشائه في ظل المجتمع الجاهلي في أي زمان وفي أي مكان بغير الفقه الضروري لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وبعد : فان الاسلام - وهو يبني الامة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج ، وقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي ، ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة - انما كان يستهدف ابراز « انسانية الانسان » وتقويتها وتمكينها ، واعلاءها على جميع الجوانب الاخرى في الكائن الانساني ، وكان يمضي في هذا على منهجه المطرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه واحكامه ..

ان الكائن الانساني يشترك مع الكائنات الحيوانية - بل الكائنات المادية - في صفات توهم أصحاب « الجهالة العلمية ! » مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان ، ومرة بأنه مادة كسائر المواد ! ولكن الانسان مع اشتراكه في هذه

« الصفات » مع الحيوان ومع المادة له « خصائص » تميزه وتفرده ، وتجعل منه كائناً فريداً ، كما اضطر أصحاب « الجهالة العلمية ! » أخيراً ان يعترفوا والحقائق الواقعية تلوي اعناقهم ليّاً ، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير اخلاص ولا صراحة (١) !

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الاسلامي في هذه القضية ، ولإقامة التجمع الاسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون اواصر الجنس والارض واللون واللغة والمصالح الارضية القريبة الحدود الاقليمية السخيفة ! ولإبراز « خصائص الانسان » في هذا التجمع وتنميتها واعلاؤها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج ان اصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الاجناس والاقوام والالوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وان صبّت في بوتقة المجتمع الاسلامي خصائص الاجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وانشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعد نسبياً قصيرة ، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحسوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

لقد اجتمع في المجتمع الاسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والاغريقي والاندونيسي والافريقي . . الى آخر الاقوام والاجناس . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الاسلامي والحضارة الاسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوماً ما « عربية » انما كانت دائماً « اسلامية » ، ولم تكن يوماً « قومية » انما

(١) في مقدمة هؤلاء جوليان هاكسلي من اصحاب « الدرونية الحديثة » .

كانت دائما « عقيدية » .

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبأصرة الحب ،
وبشعور التطلع الى وجهة واحدة . فبذلوا جميعهم اقصى
كفاياتهم ، وأبرزوا أعماق خصائص اجناسهم ، وصبوا خلاصة
تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع
الواحد الذي ينتسبون اليه جميعا على قدم المساواة ، وتجمع
فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها انسانياتهم
وحدها بلا عائق ، وهذا ما لم يجتمع قط لاي تجمع آخر على
مدار التاريخ ! .

لقد كان أشهر تجمع بشري في التاريخ القديم هو تجمع
الامبراطورية الرومانية مثلا . فقد جمعت بالفعل اجناسا
متعددة ، ولغات متعددة ، والوانا متعددة ، وأمزجة متعددة
ولكن هذا كله لم يقم على « آصرة انسانية » ولم يتمثل
في قيمة عليا كالعقيدة ، لقد كان هناك تجمع طبقي على
أساس طبقة الاشراف وطبقة العبيد في الامبراطورية كلها
من ناحية ، وتجمع عنصري على أساس سيادة الجنس
الروماني - بصفة عامة - وعبودية سائر الاجناس الاخرى .
ومن ثم لم يرتفع قط الى أفق التجمع الاسلامي ، ولم يؤت
الثمار التي آتاها التجمع الاسلامي .

كذلك قامت في التاريخ الحديث تجمعات أخرى . .
تجمع الامبراطورية البريطانية مثلا . . ولكنه كان كالتجمع
الروماني الذي هو وريثه ! تجمعا قوميا استغلاليا ، يقوم
على أساس سيادة القومية الانجليزية ، واستغلال المستعمرات
التي تضمها الامبراطورية . . ومثله الامبراطوريات الاوربية
كلها : الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية في وقت ما ،
والامبراطورية الفرنسية . . كلها في ذلك المستوى الهابط
البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية ان تقيم تجمعا من نوع
آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والارض واللغة واللون ،

ولكنها لم تقمه على قاعدة « انسانية » عامة ، انما اقامته على القاعدة « الطبقية » . فكان هذا التجمع هو الوجه الاخر للتجمع الروماني القديم . . هذا تجمع على قاعدة طبقة « الاشراف » وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ، والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الاسود على سائر الطبقات الاخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض ان يثمر الا أسوأ ما في الكائن الانساني . . فهو ابتداء قائم على أساس ابراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار ان « المطالب الاساسية » للانسان هي « الطعام والسكن والجنس » - وهي مطالب الحيوان الاولى - وباعتبار ان تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!!

لقد تفرد الاسلام بمنهجه الرباني في ابراز اخص خصائص الانسان وتنميتها واعلاؤها في بناء المجتمع الانساني . وما يزال متفردا . . والذين يعدلون عنه الى اي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة اخرى من القوم أو الجنس أو الارض أو الطبقة . . الى آخر هذا النتن السخيف هم اعداء الانسان حقا ! هم الذين لا يريدون لهذا الانسان ان يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ، ولا يريدون لمجتمعه ان ينتفع بأقصى كفايات اجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق . . وهم الذين يقول الله سبحانه في امثالهم : « قل : هل ننبئكم بالأخسرين اعمالا . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؟ اولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . وذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا » .
وصدق الله العظيم . .

الجهاد في سبيل الله

لخص الامام ابن القيم سياق الجهاد في الاسلام في « زاد المعاد » في الفصل الذي عقده باسم : « فصل في ترتيب هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث الى حين لقي الله عز وجل » : اول ما أوحى به تبارك وتعالى ، ان يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك اولى نبوته ، فأمره ان يقرأ فبي نفسه « فأندر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله ب : « يا أيها المدثر » ، ثم أمره ان ينذر عشيرته الاقربين ، ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ، ثم أنذر العرب قاطبة ، ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة واذن له في القتال . ثم أمره ان يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فان خاف منهم خيانة نبذ اليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر ان يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الاقسام كلها : فأمر ان يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الاسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة

واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم اليهم . . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسما أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسما لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم الى مدتهم . وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم . . . فقتل الناقض لعده ، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق ، أربعة اشهر . وأمره أن يتم للموفي بعده عهده الى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم الى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح الى الاسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب . . . وأما سيرته في المنافقين فانه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم الى الله ، وأن يجاهدكم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ الى نفوسهم ، ونهي أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه أن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . . . فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين . . .

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الاسلام تتجلى سمات اصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف امامها طويلا ، ولكننا لا نملك هنا الا ان نشير اليها اشارات مجملية :

السمة الاولى : هي الواقعية الجديدة في منهج هذا

الدين .. فهو حركة تواجه واقعا بشريا .. وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي .. انها تواجهه جاهلية اعتقادية تصورية ، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ، تسندها سلطات ذات قوة مادية .. ومن ثم تواجهه الحركة الاسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات ، وتواجهه بالقوة والجهاد لازالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التي تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ، وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدتهم لغير ربهم الجليل .. انها حركة لا تكتفي بالبيان في وجه السلطان المادي ، كما انها لا تستخدم القهر المادي لضماثر الافراد .. وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لخراج الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده كما سيجيء .

والسمة الثانية في منهج هذا الدين : هي الواقعية الحركية .. فهو حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية ، وكل مرحلة تسلم الى المرحلة التي تليها .. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما انه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة .. والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها .. الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك انهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا ، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين ، ويقولون - وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع اليائس لذراري

المسلمين الذين لم يبق لهم من الاسلام الا العنوان - : ان الاسلام لا يجاهد الا للدفاع ! ويحسبون انهم يسدون الى هذا الدين جميلا بتخليه عن منهجه وهو ازالة الطواغيت كلها من الارض جميعا ، وتعبيد الناس لله وحده ، واخراجهم من العبودية للعباد الى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . . بعد تحطيم الانظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة ، تعتنقها او لا تعتنقها بكامل حريتها .

والسمة الثالثة : هي ان هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن اهدافه المرسومة . فهو - منذ اليوم الاول - سواء وهو يخاطب العشيرة الاقربين ، أو يخاطب قريشا ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين ، انما يخاطبهم بقاعدة واحدة ، ويطلب منهم الانتهاء الى هدف واحد هو اخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . . ثم يمضي الى تحقيق هذا الهدف الواحد في خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة ، لكل مرحلة وسائلها المتجددة . على نحو ما اسلفنا في الفقرة السابقة .

والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم ووسائل المجتمعات الاخرى - على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن « زاد المعاد » - وقيام ذلك الضبط على أساس ان الاسلام لله هو الاصل العالمي الذي على البشرية كلها ان تفيء اليه ، أو أن تسأله بجملتها فلا تقف لدعوتيه بأي حائل من نظام سياسي ، أو قوة مادية ، وان تخلي بينه وبين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق ارادته ، ولكن لا يقاومه ولا

يحاربه ! فان فعل ذلك احد كان على الاسلام ان يقاتله حتى يقتله او حتى يعلن استسلامه !

والمهزومون روحيا وعقليا ممن يكتبون عن « الجهاد في الاسلام » ليدفعوا عن الاسلام هذا « الاتهام » يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الاكراه على العقيدة ، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ، والتي تعبد الناس للناس ، وتمنعهم من العبودية لله . . . وهما امران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . . . ومن أجل هذا التخليط ، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة ! - يحاولون أن يحصروا الجهاد في الاسلام فيما يسمونه اليوم : « الحرب الدفاعية » . . . والجهاد في الاسلام امر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكييفها كذلك . . . ان بواعث الجهاد في الاسلام ينبغي تلمسها في طبيعة « الاسلام » ذاته ودوره في هذه الارض ، واهدافه العليا التي قررها الله ، وذكر الله انه ارسل من اجلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات .

ان هذا الدين اعلان عام لتحرير « الانسان » في « الارض » من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه ايضا وهي من العبودية للعباد - وذلك باعلان الوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين . . . ! ان اعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها : الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها واشكالها وانظمتها واوضاعها ، والتمرد الكامل على كل وضع في ارجاء الارض ، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور . . . او بتعبير آخر مرادف : الالوهية فيه للبشر في

صورة من الصور . . ذلك ان الحكم الذي مردّ الامر فيه الى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض اربابا من دون الله . ان هذا الاعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب وردّه الى الله ، وطرد المغتصبين له ، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند انفسهم ، فيقومون منهم مقام الارباب ويقوم الناس منهم مكان العبيد . . ان معناه تحطيم مملكة البشر لاقامة مملكة الله في الارض ، او بالتعبير القرآني الكريم :

« وهو الذي في السماء اله وفي الارض اله » .
« ان الحكم الا لله . . امر ألاّ تعبدوا الاّ ايّاه . . ذلك الدين القيم . . »

« قل : يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم . . ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله . فان تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون . . »

ومملكة الله في الارض لا تقوم بان يتولى الحاكمية في الارض رجال باعيانهم - هم رجال الدين - كما كان الامر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال فيما يعرف باسم « الشيوقراطية » أو الحكم الالهي المقدس !! - ولكنها تقوم بان تكون شريعة الله هي الحاكمة ، وان يكون مرد الامر الى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

وقيام مملكة الله في الارض ، وازالة مملكة البشر ، وانتزاع السلطان من ايدي مغتصبه من العباد وردّه الى الله وحده . . وسيادة الشريعة الالهية وحدها والغناء القوانين البشرية . . كل اولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان ، لان

المتسلطين على رقاب العباد ، والمغتصبين لسلطان الله في الارض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان ، والا فما كان أيسر عمل الرسل في اقرار دين الله في الارض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الاجيال !

ان هذا الاعلان العام لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله ، باعلان الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن اعلانا نظريا فلسفيا سلبيا .. انما كان اعلانا حركيا واقعيا ايجابيا .. اعلانا يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من ان يتخذ شكل « الحركة » التي جانب شكل « البيان » .. ذلك ليواجه « الواقع » البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه .

والواقع الانساني ، أمس واليوم وغدا ، يواجه هذا الدين - بوصفه اعلانا عاما لتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان غير سلطان الله - بعقبات اعتقادية تصورية ، وعقبات مادية واقعية .. وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، الى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد .

واذا كان « البيان » يواجه العقائد والتصورات ، فان « الحركة » تواجه العقبات المادية الاخرى - وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة - .. وهما معا - البيان والحركة - يواجهان « الواقع البشري » بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته ..

وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للانسان في الارض .. « الانسان » كله في « الارض » كلها .. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة اخرى !

ان هذا الدين ليس اعلانا لتحرير الانسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! .. ان موضوعه هو « الانسان » .. نوع « الانسان » .. ومجاله هو « الارض » .. كل « الارض » .. ان الله - سبحانه - ليس ربا للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الاسلامية وحدهم .. ان الله هو « رب العالمين » .. وهذا الدين يريد أن يرد « العالمين » الى ربهم ، وان ينتزعهم من العبودية لغيره . والعبودية الكبرى - في نظر الاسلام - هي خضوع البشر لاحكام يشرعها لهم ناس من البشر .. وهذه هي « العبادة » التي يقرر أنها لا تكون الا لله ، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى انه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أن « الاتّباع » في الشريعة والحكم هو « العبادة » التي صار بها اليهود والنصارى « مشركين » مخالفين لما أمروا به من « عبادة » الله وحده ..

أخرج الترمذي - باسناده - عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - انه لما بلغته دعوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فر الى الشام ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أخته فأعطاهما ، فرجعت الى أخيها فرغبتة في الاسلام ، وفي القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي عنقه - اي « عدي » صليب من فضة وهو (أي النبي صلى الله عليه وسلم) يقرأ هذه

الآية .. « اتخذوا أربابا من دون الله »
.. قال : فقلت انهم لم يعبدوهم ، فقال « بلى ! انهم حرّموا
عليهم الحلال واحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم
اياهم » .

وتفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقول
الله سبحانه ، نص قاطع على ان الاتباع في الشريعة والحكم
هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض
الناس اربابا لبعض .. الامر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ،
ويعلن تحرير « الانسان » ، في « الارض » من العبودية
لغير الله ..

ومن ثم لم يكن بد للاسلام ان ينطلق في « الارض »
لازالة « الواقع » المخالف لذلك الاعلان العام .. بالبيان
وبالحركة مجتمعين .. وان يوجه الضربات للقوى السياسية
التي تعبّد الناس لغير الله .. - اي تحكمهم بغير شريعة
الله وسلطانة - والتي تحول بينهم وبين الاستماع الى
« البيان » واعتناق « العقيدة » بحرية لا يتعرض لها
السلطان . ثم لكي يقيم نظاما اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا
يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد ازالة القوة
المسيطرة - سواء كانت سياسية بحتة ، أو متلبسة
بالعنصرية ، أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

انه لم يكن من قصد الاسلام قط ان يكره الناس على
اعتناق عقيدته .. ولكن الاسلام ليس مجرد « عقيدة » .
ان الاسلام كما قلنا اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية
للعباد . فهو يهدف ابتداء الى ازالة الانظمة والحكومات التي
تقوم على اساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الانسان
للانسان .. ثم يطلق الافراد بعد ذلك احرارا - بالفعل - في
اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم - بعد رفع

الضغط السياسي عنهم ، وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم - ولكن هذه التجربة ليس معناها ان يجعلوا الهمم هواهم ، أو ان يختاروا بأنفسهم ان يكونوا عبيدا للعباد ! وان يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ! . ان النظام الذي يحكم البشر في الارض يجب ان تكون قاعدته العبودية لله وحده ، وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتنق كل فرد - في ظل هذا النظام العام - ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون « الدين » كله لله . اي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . ان مدلول « الدين » اشمل من مدلول « العقيدة » ان الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة ، وهو في الاسلام يعتمد على العقيدة ، ولكنه في عمومها اشمل من العقيدة . وفي الاسلام يمكن ان تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على اساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الاسلام .

والذي يدرك طبيعة هذا الدين - على النحو المتقدم - يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للاسلام في صورة الجهاد بالسيف - الى جانب الجهاد بالبيان - ويدرك ان ذلك لم يكن حركة دفاعية - بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح « الحرب الدفاعية » كما يريد المهزومون امام ضغط الواقع الحاضر وامام هجوم المستشرقين الماكر ان يصوروا حركة الجهاد في الاسلام - انما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير « الانسان » في « الارض » . بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة .

واذا لم يكن بد ان نسمي حركة الاسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة « دفاع » ، ونعتبره « دفاعاً عن الانسان » ذاته ، ضد جميع العوامل التي تقيد

حريته وتعوق تحرره . . هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ، كما تتمثل في الانظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي كانت سائدة في الارض كلها يوم جاء الاسلام ، والتي ما تزال أشكال منها سائدة في الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة « الدفاع » نستطيع ان نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الاسلامي في « الارض » بالجهاد، ونواجه طبيعة الاسلام ذاتها ، وهي انه اعلان عام لتحرير الانسان من العبودية للعباد ، وتقرير الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الارض ، واقامة مملكة الشريعة الالهية في عالم الانسان . .

اما محاولة ايجاد مبررات دفاعية للجهاد الاسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية ، ومحاولة البحث عن اسانيد لاثبات ان وقائع الجهاد الاسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على « الوطن الاسلامي » - وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب - فهي محاولة تنم عن قلة ادراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الارض . كما انها تشي بالهزيمة امام ضغط الواقع الحاضر ، وامام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ترى لو كان ابو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون اذن عن دفع المد الاسلامي الى اطراف الارض ؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد ، وامام الدعوة تلك العقبات المادية من انظمة الدولة السياسية ، وانظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

انها سذاجة ان يتصور الانسان دعوة تعلن تحرير
« الانسان » .. نوع الانسان .. في « الارض » .. كل
الارض .. ثم تقف امام هذه العقبات تجاهدها باللسان
والبيان ! .. انها تجاهد باللسان والبيان حينما يخل
بينها وبين الافراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو السراح من
جميع تلك المؤثرات .. فهنا « لا اكراه في الدين » .. اما
حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية ، فلا بد من ازالتها
اولا بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الانسان وعقله ، وهو
طليق من هذه الاغلال !

ان الجهاد ضرورة للدعوة ، اذا كانت اهدافها هي
اعلان تحرير الانسان اعلانا جادا يواجه الواقع الفعلي
بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ، ولا يكتفي بالبيان الفلسفي
النظري ! سواء كان الوطن الاسلامي - وبالتعبير الاسلامي
الصحيح : دار الاسلام - آمنا أم مهددا من جيرانه .
فالاسلام حين يسعى الى السلم ، لا يقصد تلك السلم
الرخيصة ، وهي مجرد ان يؤمن الرقعة الخاصة التي يعتنق
أهلها العقيدة الاسلامية . انما هو يريد السلم التي يكون
الدين فيها كله لله ، أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ،
والتي لا يتخذ فيها الناس بعضهم بعضا اربابا من دون الله .
والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت اليها الحركة الجهادية
في الاسلام - بأمر من الله - لا بأوائل ايام الدعوة ولا بأواسطها
.. ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الامام ابن القيم :
« فاستقر أمر الكفار معه - بعد نزول براءة - على ثلاثة
اقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت
حال أهل العهد والصلح الى الاسلام .. فصاروا معه
قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ..
فصار أهل الارض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم

له آمن (وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة)
وخائف محارب » ..

وهذه هي المواقف المنطقية مع طبيعة هذا الدين
وأهدافه ، لا كما يفهم المهزومون امام الواقع الحاضر ، وامام
هجوم المستشرقين الماكر !

ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ، وفي أول
العهد بالهجرة الى المدينة .. وقيل للمسلمين : « كفوا أيديكم
وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » .. ثم اذن لهم فيه ، فقيل
لهم : « اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم
لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا :
ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت
صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ،
ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوي عزيز . الذين ان
مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف
ونہوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور » .. ثم فرض عليهم
القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم :
« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم » .. ثم فرض عليهم
قتال المشركين كافة فقيل لهم : « وقاتلوا المشركين كافة
كما يقاتلونكم كافة » .. وقيل لهم : « قاتلوا الذين لا
يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله
ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب ،
حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . فكان القتال
- كما يقول الامام ابن القيم - « محرما ، ثم مآذونا به ، ثم
مأمورا به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأمورا به لجميع
المشركين » ..

ان جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ، وجدية
الاحاديث النبوية التي تحض عليه ، وجدية الوقائع الجهادية

في صدر الاسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه . . ان هذه الجدية الواضحة تمنع ان يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون امام ضغط الواقع الحاضر وامام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الاسلامي !

ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله - صلى الله عليه وسلم - ويتابع وقائع الجهاد الاسلامي ، ثم يظنه شأنا عارضا مقيدا بملابسات تذهب وتجيء ، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود ؟!

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال ان الشأن الدائم الاصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الارض : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير . الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . . واذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم ان لا يتعاش الحق والباطل في هذه الارض . وانه متى قام الاسلام باعلانه العام لاقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية للعباد ، رماه المقتصبون لسلطان الله في الارض ولم يسالموه قط ، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن « الانسان » في « الارض » ذلك السلطان الغاصب . . حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

ان الكف عن القتال في مكة لم يكن الا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الامر اول العهد بالهجرة . والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الاولى

للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة . . هذا هدف اولي
لا بد منه ، ولكنه ليس الهدف الاخير . . انه هدف يضمن
وسيلة الانطلاق ، ويؤمن قاعدة الانطلاق . . الانطلاق لتحرير
« الانسان » ، ولازالة العقبات التي تمنع « الانسان » ذاته
من الانطلاق !

وكف أيدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم .
لانه كان مكفولا للدعوة في مكة حرية البلاغ . . كان صاحبها
- صلى الله عليه وسلم - يملك بحماية سيوف بني هاشم ،
أن يصدع بالدعوة ، ويخاطب بها الآذان والعقول والقلوب ،
ويواجه بها الافراد . . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة
تمنعه من ابلاغ الدعوة ، أو تمنع الافراد من سماعه ! فلا
ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة ، وذلك الى
أسباب اخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة . وقد
لخصتها في ظلال القرآن عند تفسير قوله تعالى : « ألم تر
الى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم واقموا الصلاة وآتوا
الزكاة . . » من سورة النساء . ولا بأس في اثبات بعض
هذا التلخيص هنا :

« ربما كان ذلك لان الفترة المكية كانت فترة تربية
واعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة .
ومن اهداف التربية والاعداد في مثل هذه البيئة بالذات ،
تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه
عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به ، ليخلص
من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون
به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته . وتربيته
كذلك على ضبط اعصابه ، فلا يندفع لاول مؤثر - كما هي
طبيعته - ولا يهتاج لاول مهيج ، فيتم الاعتدال في طبيعته
وحركته . وتربيته على ان يتبع مجتمعا منظما له قيادة

يرجع اليها في كل امر من أمور حياته ، ولا يتصرف الا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفا لمألوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الاساس في اعداد شخصية العربي ، لانشاء « المجتمع المسلم » الخاضع لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي او القبلي !

« وربما كان ذلك أيضا • لان الدعوة السلمية كانت اشد أثرا وانفذ ، في مثل بيئة قريش • ذات العنجهية والشرف • والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - الى زيادة العناد ، والى نشأة ثارات دموية جديدة كثرات العرب المعروفة التي اثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، اعواما طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها • وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في اذهانهم وذكرياتهم بالاسلام ، فلا تهدأ بعد ذلك ابدا ، ويتحول الاسلام من دعوة ودين الى ثارات وذحول تنسى معها وجهته الاساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر ابدا !

« وربما كان ذلك ايضا ، اجتنابا لانشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت • فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم ، انما كان ذلك موكولا الى اولياء كل فرد يعذبونه ويفتنونه « ويؤدبونونه ! » ومعنى الاذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - ان تقع معركة ومقتلة في كل بيت • • ثم يقال : هذا هو الاسلام ! ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم • في واسط العرب القادمين للحج والتجارة : ان محمدا يفرق بين الوالد وولده ، فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي • • في كل بيت وفي كل محلة ؟

« وربما كان ذلك ايضا لما يعلمه الله من ان كثيرين

من المعاندين الذين يفتنون اوائل المسلمين عن دينهم ،
ويعذبونهم ويؤذونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الاسلام
المخلص ، بل من قاداته .. ألم يكن عمر بن الخطاب من بين
هؤلاء ؟

« وربما كان ذلك أيضا ، لان النخوة العربية • في بيئة
قبلية ، من عاداتها ان تثور للمظلوم الذي يحتمل الاذى ، ولا
يتراجع ! وبخاصة اذا كان واقعا على كرام الناس فيهم ..
وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه
البيئة - فابن الدغنة لم يرض ان يترك ابا بكر - وهو رجل
كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عارا على العرب !
وعرض عليه جواره وحمايته .. وآخر هذه الظواهر نقض
صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب ابي طالب ، بعد ما
طال عليهم الجوع واشتدت المحنة .. بينما في بيئة اخرى من
بيئات « الحضارة » القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون
السكوت على الاذى مدعاة للهزاء والسخرية والاحتقار من
البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

« وربما كان ذلك ، ايضا ، لقلة عدد المسلمين حينذاك •
وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة الى بقية الجزيرة
او بلغت اخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على
الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض ابنائها ، حتى
ترى ماذا يكون مصير الموقف • ففي مثل هذه الحالة قد
تنتهي المعركة المحدودة ، الى قتل المجموعة المسلمة القليلة
- حتى ولو قتلوا هم اضعاف من سيقتل منهم - ويبقى
الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولم يقم في الارض
للاسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي • وهو دين جاء
ليكون منهاج حياة ، وليكون نظاما واقعيا عمليا للحياة •

« ... الخ ، ... »

فأما في المدينة - في أول العهد بالهجرة - فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك . .

أولا : لأن هناك مجالا للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ، وبقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحا ولا يثير حربا ، ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بأذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان واضحا أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح ، والتخلى بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانيا : أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يريد التفرغ ، في هذه المرحلة - لقريش ، التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى الواقعة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإرسال « السرايا » وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالت هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهرا . ثم على رأس ستة عشر شهرا . ثم كانت سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهرا ، وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال ، وكان ذلك في الشهر الحرام ، والتي نزلت فيها آيات البقرة : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل : قتال فيه كبير ، وصدد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ،

واخراج اهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل .
ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا . . .
ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة
. . . وهي التي نزلت فيها سورة الانفال .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالا
للقول بأن « الدفاع » بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة
الاسلامية ، كما يقول المهزومون امام الواقع الحاضر ، وأمام
الهجوم الاستشراقي الماكر !

ان الذين يلجأون الى تلمس اسباب دفاعية بحجة لحركة
المد الاسلامي ، انما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية ،
في وقت لم يعد للمسلمين شوكة ، بل لم يعد للمسلمين اسلام!
- الا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق اعلان الاسلام
العام بتحرير « الانسان » في « الارض » من كل سلطان الا من
سلطان الله ، ليكون الدين كله لله - فيبحثون عن مبررات
ادبية للجهاد في الاسلام !

والمد الاسلامي ليس في حاجة الى مبررات أدبية له
أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية :

« فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا
بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف
نؤتيه اجرا عظيما . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله
والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون :
ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من
لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا ؟ الذين آمنوا يقاتلون
في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ،
فقاتلوا اولياء الشيطان ، ان كيد الشيطان كان ضعيفا . . .
(النساء : ٧٤ - ٧٦) .

« قل للذين كفروا : ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ،
وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين . وقاتلوهم حتى لا تكون
فتنة ويكون الدين كله لله . فان انتهوا فان الله بما يعملون
بصير ، وان تولوا فاعلموا ان الله مولاكم ، نعم المولى ونعم
النصير » . (الانفال : ٣٨ - ٤٠) .

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا
يحرّمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من
الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .
وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن
الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من
قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! اتخذوا احبارهم ورهبانهم
اربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما امروا الا ليعبدوا
اله واحدا ، لا اله الا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون
ان يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ،
ولو كره الكافرون » . (التوبة : ٢٩ - ٣٢) .

انها مبررات تقرير الوهية الله في الارض ، وتحقيق
منهجه في حياة الناس ، ومطاردة الشياطين ومناهج
الشياطين ، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس ،
والناس عبيد لله وحده ، لا يجوز ان يحكمهم احد من عباده
بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفي
.. مع تقرير مبدأ : « لا اكراه في الدين » .. أي لا اكراه
على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ، والاقرار
بمبدأ ان السلطان كله لله ، او ان الدين كله لله ، بهذا
الاعتبار .

انها مبررات التحرير العام للانسان في الارض . باخراج
الناس من العبودية للعباد الى العبودية لله وحده بلا شريك ..
وهذه وحدها تكفي .. لقد كانت هذه المبررات ماثلة في

نفوس الغزاة من المسلمين ، فلم يسأل احد منهم عما اخرجهم
للجهاد فيقول : خرجنا ندافع عن وطننا المهدد ! او خرجنا
نصد عدوان الفرس او الروم علينا نحن المسلمين ! او خرجنا
نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر • وحذيفة بن
محسن والمغيرة بن شعبة جميعا لرستم قائد جيش الفرس
في القادسية ، وهو يسألهم واحدا بعد واحد في ثلاثة ايام
متوالية ، قبل المعركة : ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب :
« الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة
الله وحده • ومن ضيق الدنيا الى سعتها • ومن جور الاديان
الى عدل الاسلام •• فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن
قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه • ومن ابى
قاتلناه حتى نفضي الى الجنة او الظفر » •

ان هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته ، وفي
اعلانه العام ، وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري
بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل
متجددة •• وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء - ولو لم يوجد
خطر الاعتداء على الارض الاسلامية وعلى المسلمين فيها - انه
مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية في
المجتمعات البشرية •• لا من مجرد ملاسبات دفاعية محدودة ،
وموقوتة !

وانه ليكفي لان يخرج المسلم مجاهدا بنفسه وماله ••
« في سبيل الله » •• في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو
من وراثتها مغنم ذاتي ، ولا يخرجها لها مغنم ذاتي ••

ان المسلم قبل ان ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد
خاض معركة الجهاد الاكبر في نفسه مع الشيطان •• مع

هواه وشهواته .. مع مطامعه ورغباته .. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه .. مع كل شارة غير شارة الاسلام .. ومع كل دافع الا العبودية لله ، وتحقيق سلطانه في الارض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله ..

والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الاسلامي في حماية « الوطن الاسلامي » يفضون من شأن « المنهج » ويعتبرونه اقل من « الموطن » وهذه ليست نظرة الاسلام الى هذه الاعتبارات . انها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الاسلامي ، فالعقيدة والمنهج الذي تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس الاسلامي . اما الارض - بذاتها - فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للارض في التصور الاسلامي انما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها ، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و « دار الاسلام » ونقطة الانطلاق لتحرير « الانسان » .

وحقيقة ان حماية « دار الاسلام » حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج . ولكنها هي ليست الهدف النهائي ، وليست حمايتها هي الغاية الاخيرة لحركة الجهاد الاسلامي ، انما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها ، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق الى الارض كلها والى النوع الانساني بجملته . فالنوع الانساني هو موضوع هذا الدين والارض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فان الانطلاق بالمذهب الالهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة ، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة .. وهذه كلها هي التي ينطلق الاسلام ليحطمها بالقوة ، كي يخلو له وجه الافراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحررها من الاغلال المادية ، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار .

يجب ألا تخذعنا أو تفرعنا حملات المستشرقين على مبدأ « الجهاد » ، وألا يثقل على عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحث للجهاد الاسلامي عن مبررات ادبية خارجية عن طبيعة هذا الدين ، في ملابسات دفاعية وقتية ، كان الجهاد سينطلق في طريقه سواء وجدت أم لم توجد !

ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي الا نغفل عن الاعتبار الذاتية في طبيعة هذا الدين واعلانه العام ومنهجه الواقعي ، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية ..

حقا انه لم يكن بد لهذا الدين ان يدافع المهاجمين له ، لان مجرد وجوده في صورة اعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لان الحاكمية فيه لله وحده .. ان مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله ، القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعا عن وجودها ذاته ، ولا بد ان يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه ..

هذه ملابسة لا بد منها ، تولد مع ميلاد الاسلام ذاته ، وهذه معركة مفروضة على الاسلام فرضا ، ولا خيار له في خوضها ، وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلا ...

هذا كله حق .. ووفق هذه النظرة يكون لا بد للاسلام أن يدافع عن وجوده ، ولا بد أن يخوض معركة

دفاعية مفروضة عليه فرضا ..

ولكن هناك حقيقة اخرى اشد اصالة من هذه الحقيقة .. ان من طبيعة الوجود الاسلامي ذاته ان يتحرك الى الامام ابتداء . لانقاذ « الانسان » في « الارض » من العبودية لغير الله ، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ، ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ، تاركاً « الانسان » .. نوع الانسان .. في « الارض » .. كل الارض .. للشرف والفساد والعبودية لغير الله .

ان المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام ، اذا تركها الإسلام تزاوُل عبودية البشر للبشر داخل حدودها الاقليمية ، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد اليها دعوته وإعلانه التحريري العام ! ولكن الإسلام لا يهادنها ، الا أن تعلن استسلامها لسلطانها في صورة اداء الجزية ، ضمانا لفتح ابوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته ، بحكم انه اعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الانسان من كل عبودية لغير الله في الناس اجمعين !

وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعا داخل حدود اقليمية او عنصرية ، لا يحركه الا خوف الاعتداء ! انه في هذه الصورة الاخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الانطلاق !

ان مبررات الانطلاق الاسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر ان هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج انسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الاجناس ! ... ونحن لا نبحث عن مبررات

خارجية الا حين تفتقر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة ..
حين ننسى ان القضية هي قضية الوهية الله وعبودية
العباد .. انه لا يمكن ان يستحضر انسان ما هذه الحقيقة
الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الاسلامي !

والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين
تصور ان الاسلام كان مضطرا لخوض معركة لا اختيار له
فيها ، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية
الآخري التي لا بد ان تهاجمه ، وتصور انه هو بذاته لا بد ان
يتحرك ابتداء ، فيدخل في هذه المعركة ..

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة ، فهو في
كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتما ، ولكنها في نهاية
الطريق تبدو هائلة شاسعة ، تغير المشاعر والمفاهيمات
الاسلامية تغييرا كبيرا .. خطيرا .

ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام منهجا الهيا ،
جاء ليقرر الوهية الله في الارض ، وعبودية البشر جميعا
لاله واحد ، ويصب هذا التقرير في قالب واقصي ، هو
المجتمع الانساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية
للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم الا شريعة الله ،
التي يتمثل فيها سلطان الله ، او بتعبير آخر تتمثل فيها
الوهيته .. فمن حقه اذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ،
ليخاطب وجدان الافراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع
مصطنعة من نظام الدولة السياسي ، او اوضاع الناس
الاجتماعية .. ان هناك مسافة هائلة بين اعتبار الاسلام على
هذا النحو ، واعتباره نظاما محليا في وطن بعينه فمن حقه
فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الاقليمية !

هذا تصور .. وذاك تصور .. ولو أن الاسلام في كلتا

الحالتين سيجاهد .. ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه ، يختلف اختلافاً بعيداً ، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه .

ان من حق الاسلام أن يتحرك ابتداءً . فالاسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج اله ، ونظام عالم .. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الانظمة والاوزاع التي تغل من حرية « الانسان » في الاختيار . وحسبه أنه لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته ، انما يهاجم الانظمة والاوزاع ليحرر الافراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفطرة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الاسلام أن يُخرج « الناس » من عبادة العباد الى عبادة الله وحده .. ليحقق اعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين .. وعبادة الله وحده لا تتحقق - في التصور الاسلامي وفي الواقع العملي - الا في ظل النظام الاسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم ، حاكمهم ومحكومهم ، أسودهم وأبيضهم ، قاصيهم ودانيهم ، فقيرهم وغنيهم ، تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء .. اما في سائر الانظمة ، فيعبد الناس العباد ، لانهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الالهية ، فأيا بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه ، فقد ادعى الالهية اختصاصاً وعملاً ، سواء ادعاها قولاً ام لم يعلن هذا الادعاء . وأيا بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الالهية ، سواء سماها باسمها ام لم يسمها !

والاسلام ليس مجرد عقيدة ، حتى يقنع ببلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . انما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس ، والتجمعات الاخرى لا

تمكّنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو ، ومن ثم يتحتّم على الاسلام ان يزيل هذه الانظمة بوصفها معوقات للتحرير العام . وهذا - كما قلنا من قبل - معنى ان يكون الدين كله لله ، فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الانظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد !

ان الباحثين الاسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر ، يتخرجون من تقرير تلك الحقيقة ، لان المستشرقين صوروا الاسلام حركة قهر بالسيف للاكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيدا ان هذه ليست هي الحقيقة ، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الاسلامي بهذه الطريقة . . . ومن ثم يقوم المنافحون - المهزومون - عن سمعة الاسلام ، بنفي هذا الاتهام ، فيلجأون الى تلمس المبررات الدفاعية ! ويفعلون عن طبيعة الاسلام ووظيفته ، وحقه في « تحرير الانسان » ابتداء .

وقد غشي على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة « الدين » . . . وانه مجرد « عقيدة » في الضمير ، لا شأن لها بالانظمة الواقعية للحياة . ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهادا لفرض العقيدة على الضمير !

ولكن الامر ليس كذلك في الاسلام ، فالاسلام منهج الله للحياة البشرية ، وهو منهج يقوم على افراد الله وحده بالالوهية - متمثلة في الحاكمية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج واقامة النظام . اما العقيدة فأمر موكول الى حرية الاقتناع ، في ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات . .

ومن ثم يختلف الامر من أساسه ، وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الاسلامي ، الذي يتمثل فيه المنهج الالهي ، فان الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام ، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان . فاذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطأ لا مسألة مبدأ ، مسألة مقتضيات حركة لا مسألة عقيدة . . . وعلى هذا الاساس الواضح يمكن ان نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، في المراحل التاريخية المتجددة ، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية ، والدلالة العامة لخط الحركة الاسلامية الثابت الطويل .

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مِنْهَجُ حَيَاةٍ

العبودية لله وحده هي شطر الركن الاول في العقيدة الاسلامية المتمثل في شهادة : ان لا اله الا الله . والتلقي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في كيفية هذه العبودية - هو شطرها الثاني ، المتمثل في شهادة أن محمدا رسول الله .

والقلب المؤمن المسلم هو الذي تتمثل فيه هذه القاعدة بشطريها ، لان كل ما بعدهما من مقومات الايمان ، وأركان الاسلام ، انما هو مقتضى لها . فالايمان بملائكة الله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الصلاة والزكاة والصيام والحج ، ثم الحدود والتعازير والحل والحرمة والمعاملات والتشريعات والتوجيهات الاسلامية ... انما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعا لانه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون مسلما .

ومن ثم تصبح شهادة ان لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، قاعدة لمنهج كامل تقوم عليه حياة الامة المسلمة بحذاويرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل ان تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة اسلامية اذا قامت على غير هذه القاعدة ،

أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد اجنبية عنها :

« ان الحكم الا لله ، أمر ألا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم » . . . (يوسف : ٤٠) .
« من يطع الرسول فقد أطاع الله » . . (النساء : ٨٠) .



هذا التقرير الموجز المطلق الحاسم يفيدنا في تحديد كلمة الفصل في قضايا أساسية في حقيقة هذا الدين ، وفي حركته الواقعية كذلك :

- انه يفيدنا اولا في تحديد « طبيعة المجتمع المسلم » .
- ويفيدنا ثانيا في تحديد « منهج نشأة المجتمع المسلم » .
- ويفيدنا ثالثا في تحديد « منهج الاسلام في مواجهة المجتمعات الجاهلية » .
- ويفيدنا رابعا في تحديد « منهج الاسلام في مواجهة واقع الحياة البشرية » .
- وهي قضايا اساسية بالغة الخطورة في منهج الحركة الاسلامية قديما وحديثا .



ان السمة الاولى المميزة لطبيعة (المجتمع المسلم) هي ان هذا المجتمع يقوم على قاعدة العبودية لله وحده ففي امره كله . . هذه العبودية التي تمثلها وتكيفها شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وتتمثل هذه العبودية في التصور الاعتقادي ، كما تتمثل في الشعائر التعبدية ، كما تتمثل في الشرائع القانونية سواء .
فليس عبدا لله وحده من لا يعتقد بوحداية الله سبحانه :

« وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين ، انما هو اله واحد فاي اي فارهبون . وله ما في السماوات والارض وله الدين واصبا . أفغير الله تتقون ؟ » (النحل : ٥١ - ٥٢) .
ليس عبدا لله وحده من يتقدم بالشعائر التعبدية لاحد غير الله - معه أو من دونه - :

« قل : ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك امرت وانا اول المسلمين » .
(الانعام : ١٦٢ - ١٦٣) .

وليس عبدا لله وحده من يتلقى الشرائع القانونية من احد سوى الله ، عن الطريق الذي بلغنا الله به ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أم لله شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ؟ » (الشورى : ٢١) .

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »
(الحشر : ٧) .

هذا هو المجتمع المسلم . المجتمع الذي تتمثل العبودية لله وحده في معتقدات أفرادهِ وتصوراتهِم ، كما تتمثل في شعائِرهِم وعبادتهم ، كما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم . . وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الاسلام نفسه عن الوجود . لتخلف ركنه الاول ، وهو شهادة ان لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .

ولقد قلنا : ان العبودية لله تتمثل في « التصور
الاعتقادي » ، . . فيحسن أن نقول ما هو التصور الاعتقادي
الاسلامي . . انه التصور الذي ينشأ في الادراك البشري
من تلقيه لحقائق العقيدة من مصدرها الرباني ، والذي
يتكيف به الانسان في ادراكه لحقيقة ربه ، ولحقيقة الكون
الذي يعيش فيه - غيبه وشهوده - ولحقيقة الحياة التي
ينتسب اليها - غيبها وشهودها - ولحقيقة نفسه . . أي
لحقيقة الانسان ذاته . . ثم يكيف على أساسه تعامله مع
هذه الحقائق جميعا ، تعامله مع ربه تعاملًا تتمثل فيه عبوديته
لله وحده ، وتعامله مع الكون ونواميسه ومع الاحياء
وعوالمها ، ومع أفراد النوع البشري وتشكيلاته تعاملًا
يستمد أصوله من دين الله - كما بلغها رسول الله صلى الله
عليه وسلم - تحقيقًا لعبوديته لله وحده في هذا التعامل . .
وهو بهذه الصورة يشمل نشاط الحياة كله .



فاذا تقرر أن هذا هو « المجتمع المسلم » ، فكيف ينشأ
هذا المجتمع ؟ ما منهج هذه النشأة ؟

ان هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس
تقرر ان عبوديتها الكاملة لله وحده ، وأنها لا تدين بالعبودية
لغير الله . . لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور ،
ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر . . ولا
تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع . . ثم تأخذ
بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية
الخالصة . . تنقي ضمائرهما من الاعتقاد في ألوهية أحد غير
الله - معه أو من دونه - وتنقي شعائرها من التوجه بها
لأحد غير الله - معه أو دونه - وتنقي شرائعها من التلقي

عن أحد غير الله - معه أو من دونه .

عندئذ - وعندئذ فقط - تكون هذه الجماعة مسلمة ،
ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك . . فأمّا
قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله - على
النحو الذي تقدم - فإنهم لا يكونون مسلمين . . وأما قبل
أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم
مسلماً . . ذلك أن القاعدة الأولى التي يقوم عليها الإسلام ،
والتي يقوم عليها المجتمع المسلم - هي شهادة أن لا إله إلا
الله وأن محمداً رسول الله - لم تقم بشطريها . .

واذن فإنه قبل التفكير في إقامة نظام اجتماعي إسلامي،
واقامة مجتمع مسلم على أساس هذا النظام . . ينبغي أن
يتجه الاهتمام أولاً إلى تخلص ضماير الأفراد من العبودية
لغير الله - في أية صورة من صورها التي أسلفنا - وأن
يتجمع الأفراد الذين تخلص ضمايرهم من العبودية لغير الله
في جماعة مسلمة . . وهذه الجماعة التي خلصت ضماير
أفرادها من العبودية لغير الله ، اعتقاداً وعبادة وشريعة ، هي
التي ينشأ منها المجتمع المسلم ، وينضم إليها من يريد أن
يعيش في هذا المجتمع بعقيدته وعبادته وشريعته التي تتمثل
فيها العبودية لله وحده . . أو بتعبير آخر تتمثل فيها
شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله .

هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت
المجتمع المسلم الأول . . وهكذا تكون نشأة كل جماعة
مسلمة ، وهكذا يقوم كل مجتمع مسلم .

أن المجتمع المسلم إنما ينشأ من انتقال أفراد
ومجموعات من الناس من العبودية لغير الله - معه أو من
دونه - إلى العبودية لله وحده بلا شريك ، ثم من تقرير هـنـه

المجموعات ان تقيم نظام حياتها على اساس هذه العبودية ..
وعندئذ يتم ميلاد جديد لمجتمع جديد ، مشتق من المجتمع
الجاهلي القديم ، ومواجه له بعقيدة جديدة ، ونظام للحياة
جديد ، يقوم على اساس هذه العقيدة ، وتمثل فيه قاعدة
الاسلام الاولى بشطريه .. شهادة أن لا اله الا الله وان
محمدا رسول الله ..

وقد ينضم المجتمع الجاهلي القديم بكامله الى المجتمع
الاسلامي الجديد وقد لا ينضم ، كما أنه قد يهادن المجتمع
المسلم الجديد أو يحاربه ، وان كانت السنة قد جرت بأن
يشن المجتمع الجاهلي حربا لا هوادة فيها ، سواء على طلائع
هذا المجتمع في مرحلة نشوئه - وهو أفراد أو مجموعات
- أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلا - وهو ما حدث
في تاريخ الدعوة الاسلامية منذ نوح عليه السلام ، الى محمد
عليه الصلاة والسلام ، بغير استثناء .

وطبيعي ان المجتمع المسلم الجديد لا ينشأ ، ولا يتقرر
وجوده الا اذا بلغ درجة من القوة يواجه بها ضغط المجتمع
الجاهلي القديم ، قوة الاعتقاد والتصور ، وقوة الخلق
والبناء النفسي ، وقوة التنظيم والبناء الجماعي ، وسائر
أنواع القوة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهلي ويتغلب
عليه ، أو على الاقل يصمد له !

ولكن ما هو « المجتمع الجاهلي » ؟ وما هو منهج
الاسلام في مواجهته ؟

ان المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم !
واذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا : انه هو كل مجتمع لا
يخلص عبوديته لله وحده .. متمثلة هذه العبودية في التصور

الاعتقادي ، وفي الشعائر التعبدية ، وفي الشرائع القانونية ..
وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في اطار « المجتمع
الجاهلي » جميع المجتمعات القائمة اليوم في الارض فعلا !!

تدخل فيه المجتمعات الشيعوية .. اولا : بالحادها في
الله - سبحانه - وبانكار وجوده أصلا ، ورجع الفاعلية في
هذا الوجود الى « المادة » أو « الطبيعة » ، ورجع الفاعلية
في حياة الانسان وتاريخه الى « الاقتصاد » أو « أدوات
الانتاج » ، ثانيا : باقامة نظام العبودية فيه للحزب - على
فرض ان القيادة الجماعية في هذا النظام حقيقة واقعة ! -
لا لله سبحانه ! ثم ما يترتب على ذلك التصور وهذا النظام
من اهدار لخصائص « الانسان » وذلك باعتبار ان « المطالب
الاساسية » له هي فقط مطالب الحيوان ، وهي : الطعام
والشراب والملبس والسكن والجنس ! وحرمانه من حاجات
روحه « الانساني » المتميز عن الحيوان ، وفي أولها : العقيدة
في الله ، وحرية اختيارها ، وحرية التعبير عنها ، وكذلك
حرية التعبير عن « فرديته » وهي من اخص خصائص
« انسانيته » . هذه الفردية التي تتجلى في الملكية الفردية ،
وفي اختيار نوع العمل والتخصص ، وفي التعبير الفني عن
« الذات » الى آخر ما يميز « الانسان » عن « الحيوان » أو
عن « الآلة » اذ ان التصور الشيعوي والنظام الشيعوي
سواء ، كثيرا ما يهبط بالانسان عن مرتبة الحيوان الى مرتبة
الآلة !

وتدخل فيه المجتمعات الوثنية - وهي ما تزال قائمة
في الهند واليابان والفلبين وافريقية - تدخل فيه - اولا :
بتصورها الاعتقادي القائم على تأليه غير الله - معه أو من
دونه - وتدخل فيه ثانيا : بتقديم الشعائر التعبدية لشتى
الآلهة والمعبودات التي تعتقد بألوهيتها .. كذلك تدخل فيه

باقامة انظمة وشرائع ، المرجع فيها لغير الله وشريعته .
سواء استمدت هذه الانظمة والشرائع من المعابد والكهنة
والسدنة والسحرة والشيوخ ، او استمدتها من هيئات مدنية
« علمانية » تملك سلطة التشريع دون الرجوع الى شريعة
الله . . أي أن لها الحاكمة العليا باسم (الشعب) أو باسم
(الحزب) أو باسم كائن من كان . . ذلك ان الحاكمة
العليا لا تكون الا لله سبحانه ، ولا تزاوُل الا بالطريقة
التي بلغها عنه رسله .

وتدخل فيه المجتمعات اليهودية والنصرانية في أرجاء
الارض جميعا . . تدخل فيه هذه المجتمعات اولا : بتصورها
الاعتقادي المحرف ، الذي لا يفرد الله - سبحانه - بالالوهية
بل يجعل له شركاء في صورة من صور الشرك ، سواء بالبنوة
او بالتثليث ، او يتصور الله سبحانه على غير حقيقته ،
وتصور علاقة خلقه به على غير حقيقتها :

« وقالت اليهود : عزيز ابن الله ، وقالت النصارى :
المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول
الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ، أنى يؤفكون ؟ ، . .
(التوبة : ٣٠) .

« لقد كفر الذين قالوا : ان الله ثالث ثلاثة . وما من
اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسّن الذين
كفروا منهم عذاب اليم » . . . (المائدة : ٧٣) .

« وقالت اليهود : يد الله مغلولة . غلت ايديهم ولعنوا
بما قالوا . بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » . . .
(المائدة : ٦٤) .

« وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه .
قل : فلم يعذبكم بذنوبكم؟ بل انتم بشر ممن خلق » . . .
(المائدة : ١٥) .

وتدخل فيه كذلك بشعائرها التعبدية ومراسمها وطقوسها المنبثقة من التصورات الاعتقادية المنحرفة الضالة .. ثم تدخل فيه بانظمتها وشرائعها ، وهي كلها لا تقوم على العبودية لله وحده ، بالاقرار له وحده بحق الحاكمية ، واستمداد السلطان من شرعه ، بل تقيم هيئات من البشر ، لها حق الحاكمية العليا التي لا تكون الا لله سبحانه .. وقديما وصمهم الله بالشرك لانهم جعلوا هذا الحق للأخبار والرهبان ، يشرعون لهم من عند انفسهم فيقبلون منهم ما يشرعونه :

« اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله - والمسيح بن مريم - وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا . لا اله الا هو . سبحانه عما يشركون » ..

وهم لم يكونوا يعتقدون في الوهية الاحبار والرهبان . ولم يكونوا يتقدمون لهم بالشعائر التعبدية ، انما كانوا فقط يعترفون لهم بحق الحاكمية ، فيقبلون منهم ما يشرعونه لهم ، بما لم يأذن به الله ، فأولى ان يوصموا اليوم بالشرك والكفر ، وقد جعلوا ذلك لناس منهم ليسوا احبارا ولا رهبانا .. وكلهم سواء ..

وأخيرا يدخل في اطار المجتمع الجاهلي تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها انها « مسلمة » ! .

وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الاطار لانها تعتقد بالوهية احد غير الله ، ولا لانها تقدم الشعائر التعبدية لغير الله أيضا ، ولكنها تدخل في هذا الاطار لانها لا تدين بالعبودية لله وحده في نظام حياتها . فهي - وان لم تعتقد بالوهية أحد الا الله - تعطي أخص خصائص الالوهية لغير الله ، فتدين بحاكمية غير الله ، فتتلقى من هذه

الحاكمية نظامها ، وشرائعها وقيمها ، وموازينها ، وعاداتها
وتقاليدها .. وكل مقومات حياتها تقريبا ! .

والله سبحانه يقول عن الحاكمين :

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ..
(المائدة : ٤٤)

ويقول عن المحكومين :

« ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك
وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت . وقد
أمرنا أن يكفروا به » السى أن يقول : « فلا وربك لا يؤمنون
حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم
حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » ..
(النساء : ٦٠ - ٦٥)

كما أنه - سبحانه - قد وصف اليهود والنصارى من
قبل بالشرك والكفر والحيدة عن عبادة الله وحده ، واتخاذ
الاحبار والرهبان اربابا من دونه ، لمجرد ان جعلوا للاخبار
والرهبان ما يجعله الذين يقولون عن انفسهم انهم « مسلمون »
لناس منهم ! واعتبر الله سبحانه ذلك من اليهود والنصارى
شركا كاتخاذهم عيسى بن مريم ربا يؤلهونه ويعبدونه
سواء . فهذه كتلك خروج من العبودية لله وحده ، فهي
خروج من دين الله ، ومن شهادة ان لا اله الا الله .

وهذه المجتمعات بعضها يعلن صراحة « علمانيته » وعدم
علاقته بالدين أصلا ، وبعضها يعلن أنه « يحترم الدين » ولكنه
يخرج الدين من نظامه الاجتماعي أصلا ، ويقول : انه ينكر
« الغيبية » ويقيم نظامه على « العلمية » باعتبار ان العلمية

تناقض الغيبية ! وهو زعم جاهل لا يقول به الا الجاهال (١)
وبعضها يجعل الحاكمة الفعلية لغير الله ويشرع ما يشاء
ثم يقول عما يشرعه من عند نفسه : هذه شريعة الله ! ..
وكلها سواء في أنها لا تقوم على العبودية لله وحده ..

واذا تعين هذا ، فان موقف الاسلام من هذه المجتمعات
الجاهلية كلها يتحدد في عبارة واحدة :

انه يرفض الاعتراف باسلامية هذه المجتمعات كلها
وشرعيتها في اعتباره .

ان الاسلام لا ينظر الى العنوانات واللافتات والشارات
التي تحملها هذه المجتمعات على اختلافها .. انها كلها تلتقي
في حقيقة واحدة .. وهي ان الحياة فيها لا تقوم على
العبودية الكاملة لله وحده . وهي من ثم تلتقي - مع سائر
المجتمعات الاخرى - في صفة واحدة .. صفة « الجاهلية » ..



وهذا يقودنا الى القضية الاخيرة وهي منهج الاسلام في
مواجهة الواقع البشري كله .. اليوم وغدا والى آخر
الزمان .. وهنا ينفعنا ما قررناه في الفقرة الاولى عن « طبيعة
المجتمع المسلم » ، وقيامه على العبودية لله وحده في امره
كله .

ان تحديد هذه الطبيعة يجيب اجابة حاسمة عن هذا
السؤال :

- ما الاصل الذي ترجع اليه الحياة البشرية وتقوم

(١) يراجع ما جاء في تفسير قوله تعالى : « وعنده مفاتح الغيب لا
يعلمها الا هو » في الجزء السابع من الظلال .

عليه ؟ أهو دين الله ومنهجه للحياة ؟ أم هو الواقع البشري
أيا كان ؟

ان الاسلام يجيب على هذا السؤال اجابة حاسمة لا
يتلثم فيها ولا يتردد لحظة .. ان الاصل الذي يجب ان
ترجع اليه الحياة البشرية بجملتها هو دين الله ومنهجه
للحياة .. ان شهادة ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله
التي هي ركن الاسلام الاول ، لا تقوم ولا تؤدي الا ان يكون
هذا هو الاصل .. وان العبودية لله وحده مع التلقي في
كيفية هذه العبودية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
لا تتحقق الا أن يعترف بهذا الاصل ، ثم يتبع اتباعا كاملا
بلا تلثم ولا تردد :

« وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »

(الحشر : ٧)

ثم ان الاسلام يسأل :

« أنتم أعلم أم الله ؟ » ..

ويجيب :

« والله يعلم وانتم لا تعلمون » .. « وما أوتيتم من
العلم الا قليلا » ..

والذي يعلم - والذي يخلق ويرزق كذلك - هو الذي
يحكم .. ودينه الذي هو منهجه للحياة ، هو الاصل الذي
ترجع اليه الحياة .. اما واقع البشر ونظرياتهم ومذاهبهم
فهي تفسد وتنحرف ، وتقوم على علم البشر الذين لا يعلمون،
والذين لم يؤتوا من العلم الا قليلا ! .

ودين الله ليس غامضا ، ومنهجه للحياة ليس مائعا ..

فهو محدد بشرط الشهادة الثاني : محمد رسول الله ، فهو محصور فيما بلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من النصوص في الاصول . . فان كان هناك نص فالنص هو الحكم ، ولا اجتهاد مع النص . وان لم يكن هناك نص فهنا يجيء دور الاجتهاد - وفق اصوله المقررة في منهج الله ذاته . لا وفق الاهواء والرغبات - :

« فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » . .
(النساء : ٥٩)

والاصول المقررة للاجتهاد والاستنباط مقررة كذلك ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة . . فليس لأحد ان يقول لشرع يشرعه : هذا شرع الله ، الا ان تكون الحاكمية العليا لله معلنة ، وان يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه لا (الشعب) ولا (الحزب) ولا أي من البشر ، وأن يرجع الى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريد الله ولا يكون هذا لكل من يريد ان يدعي سلطانا باسم الله . كالذي عرفته أوربا ذات يوم باسم « الشيوقراطية » أو « الحكم المقدس » فليس شيء من هذا في الاسلام . وما يملك أحد ان ينطق باسم الله الا رسوله - صلى الله عليه وسلم - وانما هنالك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله . .

ان كلمة « الدين للواقع » يساء فهمها ، ويساء استخدامها كذلك . نعم ان هذا الدين للواقع . ولكن أي واقع !

. . انه الواقع الذي ينشئه هذا الدين نفسه ، وفق منهجه ، منطبقا على الفطرة البشرية في سوائها ، ومحققا للحاجات الانسانية الحقيقية في شمولها . هذه الحاجات التي يقررها الذي خلق ، والذي يعلم من خلق :

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ! » (الملك : ١٤)
والدين لا يواجه الواقع أيا كان ليقره ويبحث له عن
سند منه ، وعن حكم شرعي يعلقه عليه كاللافتة المستعارة !
انما يواجه الواقع ليزنه بميزانه ، فيقر منه ما يقر ، ويلغي
منه ما يلغي ، وينشئ واقعا غيره ان كان لا يرتضيه ، وواقعه
الذي ينشئه هو الواقع . وهذا هو المعنى بان الاسلام : « دين
للواقع » . أو ما يجب ان تعنيه في مفهومها الصحيح !

ولعله يثار هنا سؤال :

« أليست مصلحة البشر هي التي يجب ان تصوغ
واقعهم ؟ » !

ومرة اخرى نرجع الى السؤال الذي يطرحه الاسلام
ويجيب عليه :

— « أنتم أعلم أم الله ؟ »

— « والله يعلم وانتم لا تعلمون » !

ان مصلحة البشر متضمنة في شرع الله ، كما أنزله الله ،
وكما بلغه عنه رسول الله . فاذا بدا للبشر ذات يوم ان
مصلحتهم في مخالفة ما شرع الله لهم ، فهم . . . أولا :
« واهمون » فيما بدا لهم .

« ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ، ولقد جاءهم
من ربهم الهدى ، ام للانسان ما تمنى ؟ فله الآخرة
والاولى » . . .

(النجم : ٢٣ - ٢٥)

وهم . . . ثانيا : « كافرون » . . . فما يدعي أحد ان
المصلحة فيما يراه هو مخالفا لما شرع الله ، ثم يبقى لحظة
واحدة على هذا الدين ، ومن أهل هذا الدين !

شريعة كَوْنِيَّة

ان الاسلام حين يقيم بناءه الاعتقادي في الضمير والواقع على أساس العبودية الكاملة لله وحده ، ويجعل هذه العبودية متمثلة في الاعتقاد والعبادة والشريعة على السواء ، باعتبار ان هذه العبودية الكاملة لله وحده - في صورتها هذه - هي المدلول العملي لشهادة أن لا إله الا الله . . وأن التلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحده هو المدلول العملي كذلك لشهادة ان محمدا رسول الله . . .

ان الاسلام حين يقيم بناءه كله على هذا الاساس ، بحيث تمثل شهادة ان لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله منهج الحياة في الاسلام ، وتصور ملامح هذا المنهج ، وتقرر خصائصه . . ان الاسلام حين يقيم بناءه على هذا النحو الفريد الذي يفرقه عن جميع الانظمة الاخرى التي عرفتھا البشرية . . انما يرجع الى أصل أشمل في تقريره عن الوجود كله ، لا عن الوجود الانساني وحده ، والى منهج للوجود كله لا منهج للحياة الانسانية وحدها .

ان التصور الاسلامي يقوم على أساس ان هذا الوجود كله من خلق الله ، اتجهت ارادة الله الى كونه فكان ، وأودعه الله - سبحانه - قوانينه التي يتحرك بها ، والتي تتناسق بها حركة اجزائه فيما بينها ، كما تتناسق بها حركته الكلية سواء :

« انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له : كن
فيكون » . (النمل : ٤٠)

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » . (الفرقان : ٢) .

ان وراء هذا الوجود الكوني مشيئة تدبره ، وقدر
يحركه ، وناموسا ينسقه . هذا الناموس ينسق بين مفردات
هذا الوجود كلها ، وينظم حركاتها جميعا ، فلا تصطدم ، ولا
تختل ، ولا تتعارض ، ولا تتوقف عن الحركة المنتظمة
المستمرة - الى ما شاء الله - كما ان هذا الوجود خاضع
مستسلم للمشيئة التي تدبره ، والقدر الذي يحركه ،
والناموس الذي ينسقه ، بحيث لا يخطر له في لحظة واحدة
ان يتمرد على المشيئة ، او ان يتنكر للقدر ، او ان يخالف
الناموس وهو لهذا كله صالح لا يدركه العطب والفساد الا
ان يشاء الله :

« ان ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة
ايام ، ثم استوى على العرش ، يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا ،
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره . الا له الخلق
والامر ، تبارك الله رب العالمين » . (الاعراف : ٥٤)



والانسان من هذا الوجود الكوني ، والقوانين التي تحكم
فطرته ليست بمعزل عن ذلك الناموس الذي يحكم الوجود
كله . . . لقد خلقه الله - كما خلق هذا الوجود - وهو في
تكوينه المادي من طين هذه الارض ، وما وهبه الله من
خصائص زائدة على مادة الطين جعلت منه انسانا ، انما
رزقه الله اياه مقدر تقديرا ، وهو خاضع من ناحية كيانه
الجسمي للناموس الطبيعي الذي سنه الله له - رضي أم

أبى - يعطي وجوده وخلقه ابتداء بمشيئة الله لا بمشيئته هو ولا بمشيئة أبيه وأمه - فهما يلتقيان ولكنهما لا يملكان ان يعطيا جنين وجوده - وهو يولد وفق الناموس الذي وضعه الله لمدة الحمل وظروف الولادة . وهو يتنفس هذا الهواء الذي أوجده الله بمقاديره هذه ، ويتنفسه بالقدرة وبالكيفية التي أرادها الله له . وهو يحس ويتألم ، ويجوع ويعطش ، يأكل ويشرب ، ويمثل الطعام والشراب . وبالجمله يعيش . وفق ناموس الله ، عن غير ارادة منه ولا اختيار ، شأنه في هذا شأن هذا الوجود الكوني وكل ما فيه وكل من فيه ، في الخضوع المطلق لمشيئة الله وقدره وناموسه . . .

والله الذي خلق هذا الوجود الكوني وخلق الانسان ، والذي أخضع الانسان لنواميسه التي أخضع لها الوجود الكوني . هو - سبحانه - الذي سن للانسان « شريعة » لتنظيم حياته الارادية تنظيما متناسقا مع حياته الطبيعية . فالشريعة - على هذا الاساس - ان هي الا قطاع من الناموس الالهي العام الذي يحكم فطرة الانسان ، وفطرة الوجود العام ، وينسقها كلها جملة واحدة .

وما من كلمة من كلمات الله ، ولا امر ولا نهى ، ولا وعد ولا وعيد ، لا تشريع ولا توجيه . . . الا هي شطر من الناموس العام ، وصادقة في ذاتها صدق القوانين التي نسميها القوانين الطبيعية - اي القوانين الالهية الكونية - التي نراها تتحقق في كل لحظة ، بحكم ما في طبيعتها من حق ازلي أودعه الله فيها ، وهي تتحقق بقدر الله .

و « الشريعة » التي سنها الله لتنظيم حياة البشر هي - من ثم - شريعة كونية . بمعنى انها متصلة بناموس الكون العام ، ومتناسقة معه . ومن ثم فان الالتزام بها ناشئ

من ضرورة تحقيق التناسق بين حياة الانسان ، وحركة الكون الذي يعيش فيه . . بل من ضرورة تحقيق التناسق بين القوانين التي تحكم فطرة البشر المضمرة والقوانين التي تحكم حياتهم الظاهرة . وضرورة الالتئام بين الشخصية المضمرة والشخصية الظاهرة للانسان . .

ولما كان البشر لا يملكون أن يدركوا جميع السنن الكونية ، ولا أن يحيطوا بأطراف الناموس العام - ولا حتى بهذا الذي يحكم فطرتهم ذاتها ويخضعهم له - رضوا أم أبوا - فانهم - من ثم - لا يملكون أن يشرعوا لحياة البشر نظاما يتحقق به التناسق المطلق بين حياة الناس وحركة الكون ، ولا حتى التناسق بين فطرتهم المضمرة وحياتهم الظاهرة . انما يملك هذا خالق الكون وخالق البشر ، ومدير أمره وأمرهم ، وفق الناموس الواحد الذي اختاره وارتضاه .

وكذلك يصبح العمل بشريعة الله واجبا لتحقيق ذلك التناسق . . وذلك فوق وجوبه لتحقيق الاسلام اعتقادا . فلا وجود للاسلام في حياة فرد او حياة جماعة ، الا باخلاص العبودية لله وحده ، وبالتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله وحده ، تحقيقا لمدلول ركن الاسلام الاول : شهادة ان لا إله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وفي تحقيق التناسق المطلق بين حياة البشر وناموس الكون كل الخير للبشر ، كما أن فيه الصيانة للحياة من الفساد . . انهم - في هذه الحالة وحدها - يعيشون في سلام مع أنفسهم . . فأما السلام مع الكون فينشأ من تطابق حركتهم مع حركة الكون ، وتطابق اتجاههم مع اتجاهه . . واما السلام مع انفسهم فينشأ من توافق حركتهم مع دوافع فطرتهم الصحيحة ، فلا تقوم المعركة بين المرء وفطرته ، لان شريعة الله تنسق بين الحركة الظاهرة والفطرة المضمرة ، في

يسر وهدوء .. وينشأ عن هذا التنسيق تنسيق آخر في ارتباط الناس ونشاطهم العام ، لانهم جميعا يسلكون حينئذ وفق منهج موحد ، هو طرف من الناموس الكوني العام .

كذلك يتحقق الخير للبشرية عن طريق اهتدائها وتعرفها في يسر الى أسرار هذا الكون ، والطاقات المكنونة فيه والكنوز المذخورة في اطوائه ، واستخدام هذا كله وفق شريعة الله ، لتحقيق الخير البشري العام ، بلا تعارض ولا اصطدام .

ومقابل شريعة الله هو أهواء البشر :

« ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والارض ومن فيهن » (المؤمنون : ٧١)

ومن ثم توحد النظرة الاسلامية بين الحق الذي يقوم عليه هذا الدين ، والحق الذي تقوم عليه السماوات والارض ، ويصلح عليه امر الدنيا والآخرة ، ويحاسب الله به ويجازي من يتعدونه .. فهو حق واحد لا يتعدد ، وهو الناموس الكوني العام الذي اراده الله لهذا الوجود في جميع الاحوال ، والذي يخضع له ويؤخذ به كل ما في الوجود من عوالم واشياء وأحياء .

« لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ، أفلا تعقلون ! وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين . فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون . لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون . قالوا : يا ويلنا انا كنا ظالمين ! فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين . وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهموا لاتخذناهم من لدنا .. ان كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل

فيدمغه فاذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون . ولله من
في السماوات والارض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون « . . .

(الانبياء : ١٠ - ٢٠)

وفطرة الانسان تدرك هذا الحق في اعماقها ، فطبيعة
تكوينه وطبيعة هذا الكون كله من حوله ، توحى الى فطرته
بان هذا الوجود قائم على الحق ، وأن الحق اصيل فيه ،
وأنه ثابت على الناموس ، لا يضطرب ، ولا تتفرق به السبل ،
ولا تختلف دورته ، ولا يصطدم بعضه ببعض ، ولا يسير وفق
المصادفة العابرة والفلتة الشاردة ، ولا وفق الهوى المتقلب
والرغبة الجامحة ! انما يمضي في نظامه الدقيق المحكم المقدر
تقديرًا . . . ومن ثم يقع الشقاق - اول ما يقع - بين الانسان
وفطرته عندما يحيد عن الحق الكامن في اعماقها ، تحت تأثير
هواه ، وذلك عندما يتخذ شريعة لحياته مستمدة من هذا
الهوى لا من شريعة الله ، وعندما لا يستسلم لله استسلام
هذا الوجود الكوني الخاضع لمولاه !

ومثل هذا الشقاق يقع بين الافراد والجماعات والامم
والاجيال ، كما يقع بين البشر والكون من حولهم ، فتقلب
قواه وذخائره وسائل تدمير وأسباب شقاء ، بدلا من أن
تكون وسائل عمران واسباب سعادة لبني الانسان .

واذن فان الهدف الظاهر من قيام شريعة الله في الارض
ليس مجرد العمل للآخرة . فالدنيا والآخرة معا مرحلتان
متكاملتان ، وشريعة الله هي التي تنسق بين المرحلتين في
حياة هذا الانسان ، تنسق الحياة كلها مع الناموس الالهي
العام .

والتناسق مع الناموس لا يؤجل سعادة الناس الى

الآخرة ، بل يجعلها واقعة ومتحققة في المرحلة الاولى كذلك ،
ثم تتم تمامها وتبلغ كمالها في الدار الآخرة .



هذا هو أساس التصور الاسلامي للوجود كله ،
وللوجود الانساني في ظل ذلك الوجود العام ، وهو تصور
يختلف في طبيعته اختلافا جوهريا عن كل تصور آخر عرفته
البشرية ، ومن ثم تقوم عليه التزامات لا تقوم على أي تصور
آخر في جميع الانظمة والنظريات . .

ان الالتزام بشريعة الله - في هذا التصور - هو
مقتضى الارتباط التام بين حياة البشر وحياة الكون ، وبين
الناموس الذي يحكم فطرة البشر ويحكم هذا الكون ، ثم
ضرورة المطابقة بين هذا الناموس العام والشريعة التي تنظم
حياة بني الانسان ، وتحقيق بالتزامها عبودية البشر لله
وحده ، كما أن عبودية هذا الكون لله وحده لا يدعيها لنفسه
انسان .

والى ضرورة هذا التطابق والتناسق يشير الحوار
الذي جرى بين ابراهيم - عليه السلام - ابي هذه الامة
المسلمة - وبين « نمرود » المتجبر المدعي بحق السلطان على
العباد في الارض ، والذي لم يستطع - مع ذلك - ان يدعي
بحق السلطان على الافلاك والاجرام في الكون ، وبهت امام
ابراهيم عليه السلام ، وهو يقول له : ان الذي يملك السلطان
في الكون هو وحده الذي ينبغي أن يكون له السلطان في حياة
البشر ، ولم يحر جوابا على هذا البرهان :

« ألم تر الى الذي حاج ابراهيم في ربه - ان آتاه الله
الملك - اذ قال ابراهيم : ربي الذي يحيي ويميت . قال : انا

أحيي وأميت ! قال إبراهيم : فان الله يأتي بالشمس من
المشرق فأت بها من المغرب .. فبهت الذي كفر . والله لا
يهدي القوم الظالمين « .. (البقرة : ٢٥٨)

وصدق الله العظيم :

« أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السماوات
والارض طوعا وكرها واليه يرجعون ؟ » ..

(آل عمران : ٨٣)



الإسلامُ هو الحضارة

الإسلام لا يعرف الا نوعين اثنين من المجتمعات ...
مجتمع اسلامي ، ومجتمع جاهلي ..

« المجتمع الاسلامي » هو المجتمع الذي يطبق فيه
الاسلام .. عقيدة وعبادة ، وشريعة ونظاما ، وخلق وسلوكا
.. و « المجتمع الجاهلي » هو المجتمع الذي لا يطبق فيه
الاسلام ، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته ، وقيمه وموازينه ،
ونظامه وشرائعه ، وخلق وسلوكه ..

ليس المجتمع الاسلامي هو الذي يضم ناسا ممن
يسمون انفسهم « مسلمين » ، بينما شريعة الاسلام ليست
هي قانون هذا المجتمع ، وان صلى وصام وحج البيت
الحرام ! وليس المجتمع الاسلامي هو الذي يتدع لنفسه
اسلاما من عند نفسه - غير ما قرره الله سبحانه وفصله
رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويسميه مثلا « الاسلام
المتطور » !

و « المجتمع الجاهلي » قد يتمثل في صور شتى - كلها
جاهلية - :

قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى ،
ويفسر التاريخ تفسيراً مادياً جديلاً ، ويطبق ما يسميه
« الاشتراكية العلمية » نظاما .

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى ، ولكن

يجعل له ملكوت السماوات ، ويعزله عن ملكوت الارض ، فلا يطبق شريعته في نظام الحياة ، ولا يحكم قيمه التي جعلها هو قيما ثابتة في حياة البشر ، ويبيح للناس ان يعبدوا الله في البيع والكنائس والمساجد ، ولكنه يحرم عليهم أن يطالبوا بتحكيم شريعة الله في حياتهم ، وهو بذلك ينكر أو يعطل الوهية الله في الارض ، التي ينص عليها قوله تعالى :

« وهو الذي في السماء إله وفي الارض إله » ..

(الزخرف : ٨٤)

ومن ثم لا يكون هذا المجتمع في دين الله الذي يحدده قوله :

« ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه .. ذلك الدين القيم » ..
(يوسف : ٨٤)

وبذلك يكون مجتمعا جاهليا ، ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله ، ففي البيع والكنائس والمساجد .

« المجتمع الاسلامي » - بصفته تلك - هو وحده « المجتمع المتحضر » ، والمجتمعات الجاهلية - بكل صورها المتعددة - مجتمعات متخلفة ! ولا بد من ايضاح لهذه الحقيقة الكبيرة .

لقد كنت قد اعلنت مرة عن كتاب لي تحت الطبع بعنوان : « نحو مجتمع اسلامي متحضر » .. ثم عدت في الاعلان التالي عنه فحذفت كلمة « متحضر » مكتفيا بأن يكون عنوان البحث - كما هو موضوعه - « نحو مجتمع اسلامي » ..

ولفت هذا التعديل نظر كاتب جزائري (يكتبه

بالفرنسية) ففسره على أنه ناشئ من « عملية دفاع نفسية داخلية عن الاسلام » وأسف لان هذه العملية – غير الواعية – تحرمني مواجهة « المشكلة » على حقيقتها !

انا أعذر هذا الكاتب .. لقد كنت مثله من قبل .. كنت أفكر على النحو الذي يفكر هو عليه الآن .. عندما فكرت في الكتابة عن هذا الموضوع لأول مرة ! .. وكانت المشكلة عندي – كما هي عنده اليوم – هي مشكلة : « تعريف الحضارة » !

لم أكن قد تخلصت بعد من ضغط الرواسب الثقافية في تكويني العقلي والنفسي ، وهي رواسب آتية من مصادر أجنبية .. غريبة على حسي الاسلامي .. وعلى الرغم من اتجاهي الاسلامي الواضح في ذلك الحين ، الا أن هذه الرواسب كانت تغبش تصوري وتطمسه ! كان تصور « الحضارة » – كما هو الفكر الاوروبي – يخال لي ، ويغبش تصوري ، ويحرمني الرؤية الواضحة الاصيلية ،

ثم انجلت الصورة .. « المجتمع المسلم » هو « المجتمع المتحضر » . فكلية « المتحضر » اذن لغو ، لا يضيف شيئا جديدا .. على العكس تنقل هذه الكلمة الى حس القارئ تلك الظلال الاجنبية الغربية التي كانت تغبش تصوري ، وتحرمني الرؤية الواضحة الاصيلية !

الاختلاف اذن هو على « تعريف الحضارة » .. ولا بد من ايضاح اذن لهذه الحقيقة !

حين تكون الحاكمة العليا في مجتمع لله وحده – متمثلة في سيادة الشريعة الالهية – تكون هذه هي الصورة الوحيدة

التي يتحرر فيها البشر تحررا كاملا وحقيقيا من العبودية للبشر .. وتكون هذه هي « الحضارة الانسانية » لان حضارة الانسان تقتضي قاعدة أساسية من التحرر الحقيقي الكامل للانسان ، ومن الكرامة المطلقة لكل فرد في المجتمع .. ولا حرية - في الحقيقة - ولا كرامة للانسان - ممثلا في كل فرد من افراده - في مجتمع بعضه ارباب يشرعون وبعضه عبيد يطيعون !

ولا بد ان نبادر فنيّن ان التشريع لا ينحصر فقط في الاحكام القانونية - كما هو المفهوم الضيق في الازهان اليوم لكلمة الشريعة - فالتصورات والمناهج ، والقيم والموازين ، والعادات والتقاليد ... كلها تشريع يخضع الافراد لضغطه . وحين يصنع الناس - بعضهم لبعض - هذه الضغوط ، ويخضع لها البعض الآخر منهم في مجتمع ، لا يكون هذا المجتمع متحررا ، انما هو مجتمع بعضه ارباب وبعضه عبيد - كما أسلفنا - وهو - من ثم - مجتمع متخلف .. أو بالمصطلح الاسلامي .. « مجتمع جاهلي » !

والمجتمع الاسلامي هو وحده المجتمع الذي يهيمن عليه إله واحد ، ويخرج فيه الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . وبذلك يتحررون التحرر الحقيقي الكامل ، الذي تركز اليه حضارة الانسان ، وتتمثل فيه كرامته كما قدرها الله له ، وهو يعلن خلافته في الارض عنه ، ويعلن كذلك تكريمه في الملأ الاعلى ..

وحين تكون آصرة التجمع الاساسية في مجتمع هي العقيدة والتصور والفكرة ومنهج الحياة ، ويكون هذا كله صادرا من إله واحد ، تتمثل فيه السيادة العليا للبشر ،

وليس صادرا من أرباب أرضية تتمثل فيها عبودية البشر للبشر .. يكون ذلك التجمع ممثلا لأعلى ما في « الانسان » من خصائص .. خصائص الروح والفكر .. فأما حين تكون آصرة التجمع في مجتمع هي الجنس واللون والقوم والارض ... وما الى ذلك من الروابط ، فظاهر ان الجنس واللون والقوم والارض لا تمثل الخصائص العليا للانسان .. فالانسان يبقى انسانا بعد الجنس واللون والقوم والارض ، ولكنه لا يبقى انسانا بعد الروح والفكر ! ثم هو يملك - بمحض ارادته الحرة - ان يغير عقيدته وتصوره وفكره ومنهج حياته ، ولكنه لا يملك أن يغير لونه ولا جنسه ، كما أنه لا يملك أن يحدد مولده في قوم ولا في ارض .. فالمجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر يتعلق بارادتهم الحرة واختيارهم الذاتي هو المجتمع المتحضر .. اما المجتمع الذي يتجمع فيه الناس على امر خارج عن ارادتهم الانسانية فهو المجتمع المتخلف .. أو بالمصطلح الاسلامي .. هو « المجتمع الجاهلي » !

والمجتمع الاسلامي وحده هو المجتمع الذي تمثل فيه العقيدة رابطة التجمع الاساسية ، والذي تعتبر فيه العقيدة هي الجنسية التي تجمع بين الاسود والابيض والاحمر والاصفر والعربي والرومي والفارسي والحبشي وسائر أجناس الارض في أمة واحدة ، ربها الله ، وعبوديتها له وحده ، والأكرم فيها هو الاتقى ، والكل فيها أنداد يلتقون على أمر شرعه الله لهم ، ولم يشرعه أحد من العباد !

وحين تكون « انسانية » الانسان هي القيمة العليا في مجتمع ، وتكون الخصائص « الانسانية » فيه هي موضع التكريم والاعتبار ، يكون هذا المجتمع متحضرا .. فأما حين

تكون « المادة » - في أية صورة - هي القيمة العليا .. سواء في صورة « النظرية » كما في التفسير الماركسي للتاريخ ! أو في صور « الانتاج المادي » كما في امريكا واوروبا وسائر المجتمعات التي تعتبر الانتاج المادي قيمة عليا تهدر في سبيلها القيم والخصائص الانسانية .. فان هذا المجتمع يكون مجتمعا مختلفا .. أو بالمصطلح الاسلامي مجتمعا جاهليا !

ان المجتمع المتحضر .. الاسلامي .. لا يحتقر المادة ، لا في صورة النظرية (باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه ايضا) ولا في صور « الانتاج المادي » . فالانتاج المادي من مقومات الخلافة في الارض عن الله - ولكنه فقط لا يعتبرها هي القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص « الانسان » ومقوماته ! .. وتهدر من أجلها حرية الفرد وكرامته . وتهدر فيها قاعدة « الاسرة » ومقوماتها ، وتهدر فيها أخلاق المجتمع وحرماته .. الى آخر ما تهدره المجتمعات الجاهلية من القيم العليا والفضائل والحرمات لتحقيق الوفرة في الانتاج المادي !

وحيث تكون « القيم الانسانية » و « الاخلاق الانسانية » التي تقوم عليها ، هي السائدة في مجتمع ، يكون هذا المجتمع متحضرا . والقيم الانسانية والاخلاق الانسانية ليست مسألة غامضة مائعة وليست كذلك قيما « متطورة » متغيرة متبدلة ، لا تستقر على حال ولا ترجع الى أصل ، كما يزعم التفسير المادي للتاريخ ، وكما تزعم « الاشتراكية العلمية » !

انها القيم والاخلاق التي تنمي في الانسان خصائص الانسان التي يتفرد بها دون الحيوان ، والتي تغلب فيه هذا الجانب الذي يميزه ويعزوه عن الحيوان ، وليست هي القيم

والاخلاق التي تنمي فيه وتغلب الجوانب التي يشترك فيها
مع الحيوان .

وحين توضع المسألة هذا الوضع يبرز فيها خط فاصل
وحاسم « وثابت » لا يقبل عملية التمييز المستمرة التي
يحاولها « التطوريون » ! و « الاشتراكيون العلميون » !

عندئذ لا يكون اصطلاح البيئة وعرفها هو الذي يحدد
القيم الاخلاقية ، انما يكون وراء اختلاف البيئة ميزان
ثابت . . . عندئذ لا تكون هناك قيم وأخلاق « زراعية »
واخرى « صناعية » ! ولا قيم وأخلاق « رأسمالية » واخرى
« اشتراكية » ، ولا قيم وأخلاق « برجوازية » واخرى
« صعلوكية » ! ولا تكون هناك اخلاق من صنع البيئة
ومستوى المعيشة وطبيعة المرحلة . . الى آخر هذه التغيرات
السطحية والشكلية . . انما تكون هناك - من وراء ذلك
كله - قيم واخلاق « انسانية » وقيم واخلاق « حيوانية »
- اذا صح هذا التعبير ! - أو بالمصطلح الاسلامي : قيم
وأخلاق « اسلامية » وقيم واخلاق « جاهلية » .

ان الاسلام يقرر قيمة واخلاقه هذه « الانسانية » - اي
التي تنمي في الانسان الجوانب التي تفرقه وتميزه عن
الحيوان - ويمضي في انشائها وتثبيتها وصيانتها في كل
المجتمعات التي يهيمن عليها سواء كانت هذه المجتمعات في
طور الزراعة ام في طور الصناعة ، وسواء كانت مجتمعات
بدوية تعيش على الرعي او مجتمعات حضرية مستقرة ،
وسواء كانت هذه المجتمعات فقيرة او غنية . . انه يرتقي
صعدا بالخصائص الانسانية ، ويحرسها من النكسة الى
الحيوانية . . لأن الخط الصاعد في القيم والاعتبارات يمضي
من الدرك الحيواني الى المرتفع الانساني . . فاذا انتكس

هذا الخط - مع حضارة المادة - فلن يكون ذلك حضارة !
انما هو « التخلف » او هو « الجاهلية » !

وحين تكون « الاسرة » هي قاعدة المجتمع . وتقوم هذه الاسرة على أساس « التخصص » بين الزوجين في العمل . وتكون رعاية الجيل الناشئ هي أهم وظائف الاسرة . . . يكون هذا المجتمع متحضرا . . . ذلك ان الاسرة على هذا النحو - في ظل المنهج الاسلامي - تكون هي البيئة التي تنشأ وتنمى فيها القيم والاخلاق « الانسانية » التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة ، ممثلة في الجيل الناشئ ، والتي يستحيل أن تنشأ في وحدة أخرى غير وحدة الاسرة ، فأما حين تكون العلاقات الجنسية (الحرة كما يسمونها) والنسل (غير الشرعي) هي قاعدة المجتمع . . . حين تقوم العلاقات بين الجنسين على أساس الهوى والنزوة والانفعال ، لا على أساس الواجب والتخصص الوظيفي في الاسرة . . . حين تصبح وظيفة المرأة هي الزينة والغواية والفتنة . . . وحين تتخلى المرأة عن وظيفتها الاساسية في رعاية الجيل الجديد ، وتؤثر هي - أو يؤثر لها المجتمع - ان تكون مضيعة في فندق او سفينة أو طائرة ! . . . حين تنفق طاقتها في « الانتاج المادي » و « صناعة الادوات » ولا تنفقها في « صناعة الانسانية » ! لان الانتاج المادي يومئذ اغلى وأعز واكرم من « الانتاج الانساني » ، عندئذ يكون هنا هو « التخلف الحضاري » بالقياس الانساني . . . او تكون هي « الجاهلية » بالمصطلح الاسلامي !

وقضية الاسرة والعلاقات بين الجنسين قضية حاسمة في تحديد صفة المجتمع . . . متخلف ام متحضر ، جاهلي ام

اسلامي ! ٠٠ والمجتمعات التي تسود فيها القيم والاخلاق
والنزعات الحيوانية في هذه العلاقة لا يمكن ان تكون مجتمعات
متحضرة ، مهما تبلغ من التفوق الصناعي والاقتصادي
والعلمي ! ان هذا المقياس لا يخطئ في قياس مدى التقدم
« الانساني » ٠٠

وفي المجتمعات الجاهلية الحديثة ينحسر المفهوم
« الاخلاقي » بحيث يتخلل عن كل ما له علاقة بالتمييز
« الانساني » عن الطابع « الحيواني » ! ففي هذه المجتمعات
لا تعتبر العلاقات الجنسية غير الشرعية - ولا حتى العلاقات
الجنسية الشاذة - رذيلة اخلاقية ٠٠ ان المفهوم الاخلاقي
يكاد ينحصر في المعاملات الاقتصادية - والسياسية احيانا
في حدود « مصلحة الدولة » - ففضيحة كريستين كيلر
وبروفيمو الوزير الانجليزي - مثلا - لم تكن في عرف المجتمع
الانجليزي فضيحة بسبب جانبها الجنسي ٠٠ انما كانت
فضيحة لان كريستين كيلر كانت صديقة كذلك للملحق
البحري الروسي ومن هنا يكون هناك خطر على اسرار
الدولة في علاقة الوزير بهذه الفتاة ! وكذلك لانه افتضح كذبه
على البرلمان الانجليزي ! والفضائح الماثلة في مجلس الشيوخ
الامريكي ، وفضائح الجواسيس والموظفين الانجليز والامريكان
الذين هربوا الى روسيا ٠ انها ليست فضائح بسبب
شدوذهم الجنسي ! ولكن بسبب الخطر على اسرار الدولة !

والكتاب والصحفيون والروائيون في المجتمعات
الجاهلية هنا وهناك يقولونها صريحة للفتيات والزوجات : ان
الاتصالات (الحرة) ليست رذائل اخلاقية ٠ الرذيلة
الاخلاقية ان يخدع الفتى رفيقته او تخدع الفتاة رفيقها ولا
تخلص له الود ، بل الرذيلة ان تحافظ الزوجة على عفتها
اذا كانت شهوة الحب لزوجها قد خمدت ! والفضيلة ان

تبحث لها عن صديق تعطيه جسدها بأمانة ! .. عشرات من القصص هذا محورها ! ومئات التوجيهات الاخبارية والرسوم الكاريكاتورية والنكت والفكاهات هذه ايعاءاتها .. مثل هذه المجتمعات مجتمعات متخلفة .. غير متحضرة .. من وجهة نظري « الانسان » وبمقياس خط التقدم « الانساني » ..

ان خط التقدم الانساني يسير في اتجاه « الضبط » للنزوات الحيوانية ، وحصرها في نطاق « الاسرة » على أساس « الواجب » لتؤدي بذلك « وظيفة انسانية » ليست اللذة غايتها ، وانما هي اعداد جيل انساني يخلف الجيل الحاضر في ميراث الحضارة « الانسانية » التي يميزها بروز الخصائص الانسانية .. ولا يمكن اعداد جيل يترقى في خصائص الانسان ، ويبتعد عن خصائص الحيوان ، الا في محضن اسرة محوطة بضمانات الامن والاستقرار العاطفي ، وقائمة على اساس الواجب الذي لا يتأرجح مع الانفعالات الطارئة . وفي المجتمع الذي تنشئه تلك التوجيهات والايحاءات الخبيثة المسمومة ، والذي ينحسر فيه المفهوم الاخلاقي ، فيتخلى عن كل آداب الجنس ، لا يمكن ان يقوم ذلك المحضن الانساني ..

من اجل ذلك كله تكون القيم والاخلاق والايحاءات والضمانات الاسلامية هي اللائقة بالانسان . ويكون « الاسلام هو الحضارة » ويكون المجتمع الاسلامي هو المجتمع المتحضر .. بذلك المقياس الثابت الذي لا يتميع او لا « يتطور » .

واخيرا فانه حين يقوم « الانسان » بالخلافة عن « الله » في ارضه على وجهها الصحيح : بأن يخلص عبوديته لله ويخلص

من العبودية لغيره ، وان يحقق منهج الله وحده ويرفض الاعتراف بشرعية منهج غيره ، وان يحكم شريعة الله وحدها في حياته كلها وينكر تحكيم شريعة سواها ، وان يعيش بالقيم والاخلاق التي قررها الله له ويسقط القيم والاخلاق المدعاة . ثم بأن يتعرف بعد ذلك كله الى النواميس الكونية التي أودعها الله هذا الكون المادي ، ويستخدمها في ترقية الحياة ، وفي استنباط خامات الارض وأرزاقها وأقواتها التي أودعها الله اياها ، وجعل تلك النواميس الكونية اختامها ، ومنح الانسان القدرة على فض هذه الاختام بالقدر الذي يلزم له في الخلافة . . أي حين ينهض بالخلافة في الارض على عهد الله وشرطه ، ويصبح وهو يفجر ينابيع الرزق ، ويصنع المادة الخامة ، ويقىم الصناعات المتنوعة ، ويستخدم ما تتيحه له كل الخبرات الفنية التي حصل عليها الانسان في تاريخه كله . . حين يصبح وهو يصنع هذا كله « ربانيا » يقوم بالخلافة عن الله على هذا النحو - عبادة لله . يومئذ يكون هذا الانسان كامل الحضارة ، ويكون هذا المجتمع قد بلغ قمة الحضارة . . فأما الابداع المادي - وحده - فلا يسمى في الاسلام حضارة . . فقد يكون وتكون معه الجاهلية . . وقد ذكر الله من هذا الابداع المادي في معرض وصف الجاهلية نماذج :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ! واذا بطشتم بطشتم جبارين ، فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين ، وجنات وعيون ، اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .
(الشعراء : ١٢٧ - ١٣٥)

« اتركون فيما ها هنا آمنين ؟ في جنات وعيون ، وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتا

فارھین ؟ فاتقوا اللہ وأطیعون ، ولا تطیعوا امر المسرفین ،
الذین یفسدون فی الارض ولا یصلحون » •

(الشعراء : ۱۴۶ - ۱۵۲)

« فلما نسوا ما ذکروا به فتحنا علیہم أبواب کل شیء » ،
حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناہم بغتۃ ، فاذا ہم مبلسون
فقطع دابر القوم الذین ظلموا ، والحمد للہ رب العالمین » •••

(الانعام : ۴۳ - ۴۵)

« حتی اذا أخذت الارض زخرفها وأزیّنت وظن أهلہا
انہم قادرون علیہا أتاہا امرنا لیلا أو نهارا فجعلناہا حصیدا
کان لم تغن بالامس » •

(یونس : ۲۴)

ولکن الاسلام - کما أسلفنا - لا یحتقر المادۃ ، ولا
یحتقر الابداع المادی ، انما هو یجعل هذا اللون من التقدم
- فی ظل منهج اللہ - نعمة من نعم اللہ علی عبادہ ، یشیرہم
بہ جزاء علی طاعته :

« فقلت : استغفروا ربکم ، انه کان غفّاراً ، یرسل
السما علیکم مدراراً ، ویمددکم بأموال وبنین ویجعل لکم
جنات ویجعل لکم أنهاراً » •••

(نوح : ۱۰ - ۱۲)

« ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا علیہم بركات
من السماء والارض ، ولكن کذبوا فأخذناہم بما کانوا
یکسبون » •••

(الاعراف : ۹۶)

المہم هو القاعدة التي یقوم علیہا التقدم الصناعي ،
والقیم التي تسود المجتمع ، والتي يتألف من مجموعہا
خصائص الحضارة « الانسانية » ••

وبعد .. فان قاعدة انطلاق المجتمع الاسلامي ، وطبيعة تكوينه العضوي ، تجعلان منه مجتمعا فريدا لا تنطبق عليه اية من النظريات التي تفسر قيام المجتمعات الجاهلية وطبيعة تكوينها العضوي .. المجتمع الاسلامي وليد الحركة، والحركة فيه مستمرة ، وهي التي تعين أقدار الاشخاص فيه وقيمهم ، ومن ثم تحدد وظائفهم فيه ومراكزهم .

والحركة التي يتولد عنها هذا المجتمع ابتداء حركية آتية من خارج النطاق الارضي ، ومن خارج المحيط البشري .. انها تتمثل في عقيدة آتية من الله للبشر ، تنشئ لهم تصورا خاصا للوجود والحياة والتاريخ والقيم والغايات ، وتحدد لهم منهجا للعمل يترجم هذا التصور .. الدفعة الاولى التي تطلق الحركة ليست منبثقة من نفوس الناس ولا من مادة الكون .. انها - كما قلنا - آتية لهم من خارج النطاق الارضي ، ومن خارج المحيط البشري .. وهذا هو المميز الاول لطبيعة المجتمع الاسلامي وتركيبه .

انه ينطلق من عنصر خارج عن محيط الانسان وعن محيط الكون المادي .

وبهذا العنصر القدري الغيبي الذي لم يكن احد من البشر يتوقعه أو يحسب حسابه ، ودون ان يكون للانسان يد فيه - ففي ابتداء الامر - تبدأ اولى خطوات الحركة في قيام المجتمع الاسلامي ، ويبدأ معها عمل « الانسان » أيضا . انسان يؤمن بهذه العقيدة الآتية له من ذلك المصدر الغيبي ، الجارية بقدر الله وحده . وحين يؤمن هذا الانسان الواحد بهذه العقيدة يبدأ وجود المجتمع الاسلامي (حكما) .. ان الانسان الواحد لن يتلقى هذه العقيدة وينطوي على نفسه .. انه سينطلق بها .. هذه طبيعتها .. طبيعة الحركة الحية .. ان القوة العليا التي دفعت بها الى هذا القلب تعلم انها

ستتجاوزه حتما ! .. ان الدفعة الحية التي وصلت بها هذه العقيدة الى هذا القلب ستمضي في طريقها قدما .

وحين يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر ، فان هذه العقيدة ذاتها تقول لهم : انتم الان مجتمع ، مجتمع اسلامي مستقل ، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة ، ولا تسود فيه قيمها الاساسية - القيم التي أسلفنا الإشارة اليها - وهنا يكون المجتمع الاسلامي قد وجد (فعلا) !

والثلاثة يصبحون عشرة ، والعشرة يصبحون مئة ، والمئة يصبحون الفا ، والالف يصبحون اثني عشر الفا .. ويزرز ويتقرر وجود المجتمع الاسلامي !

وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره ، وانفصل بقيمه واعتباراته ، وانفصل بوجوده وكينونته ، عن المجتمع الجاهلي - الذي اخذ منه افراده - وتكون الحركة من نقطة الانطلاق الى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من افراد هذا المجتمع ، واعطته وزنه ومكانه في هذا المجتمع - حسب الميزان والاعتبار الاسلامي - ويكون وزنه هذا معترفا له به من المجتمع دون ان يزكي نفسه أو يعلن عنه بل ان عقيدته وقيمه السائدة في نفسه وفي مجتمعه لتضغط عليه يومئذ ليؤاري نفسه عن الانظار المتطلعة اليه في البيئة !

ولكن « الحركة » التي هي طابع العقيدة الاسلامية ، وطابع هذا المجتمع الذي انبثق منها ، لا تدع احدا يتواري ! ان كل فرد من افراد هذا المجتمع لا بد ان يتحرك ! الحركة في عقيدته ، والحركة في دمه ، والحركة في مجتمعه ، وفي تكوين هذا المجتمع العضوي .. ان الجاهلية من حوله ،

وبقية من رواسبها في نفسه وفي نفوس من حوله ، والمعركة مستمرة ، والجهد ماض الى يوم القيامة .

على ايقاعات الحركة ، وفي اثناء الحركة ، يتحدد وضع كل فرد في هذا المجتمع ، وتحدد وظيفته ، ويتم التكوين العضوي لهذا المجتمع بالتناسق بين مجموعة افراده ومجموعة وظائفه .

هذه النشأة ، وهذا التكوين ، خاصيتان من خصائص المجتمع الاسلامي تميزانه ، تميزان وجوده وتركيبه ، وتميزان طابعه وشكله ، وتميزان نظامه والاجراءات التنفيذية لهذا النظام ايضا ، وتجعلان هذه الملامح كلها مستقلة ، لا تعالج بمفاهيم اجتماعية اجنبية عنها ، ولا تدرس وفق منهج غريب عن طبيعتها ، ولا تنفذ باجراءات مستمدة من نظام آخر !



ان المجتمع الاسلامي - كما يبدو من تعريفنا المستقل للحضارة - ليس مجرد صورة تاريخية ، يبحث عنها في ذكريات الماضي ، انما هو طلبية الحاضر وامل المستقبل . انه هدف يمكن ان تستشرفه البشرية كلها اليوم وغدا ، لترتفع به من وهدة الجاهلية التي تتردى فيها ، سواء في هذه الجاهلية الامم المتقدمة صناعيا واقتصاديا والامم المتخلفة ايضا .

ان تلك القيم التي اشرنا اليها اجمالا هي قيم انسانية ، لم تبلغها الانسانية الا في فترة « الحضارة الاسلامية » . (ويجب ان ننبه الى ما نعنيه بمصطلح « الحضارة الاسلامية » . . . انها الحضارة التي توافرت فيها تلك القيم ، وليست هي كل تقدم صناعي أو اقتصادي أو علمي مع تخلف القيم عنها) .

وهذه القيم ليست « مثالية خيالية » انما هي قيم واقعية عملية ، يمكن تحقيقها بالجهد البشري - في ظل المفاهيم الاسلامية الصحيحة - ، يمكن تحقيقها في كل بيئة بغض النظر عن نوع الحياة السائدة فيها ، وعن تقدمها الصناعي والاقتصادي والعلمي .. فهي لا تعارض - بل تشجع بالمنطق العقيدي ذاته - التقدم في كافة حقول الخلافة ، ولكنها في الوقت ذاته لا تقف مكتوفة اليدين في البلاد التي لم تتقدم في هذه الحقول بعد . ان الحضارة يمكن ان تقوم في كل مكان وفي كل بيئة .. تقوم بهذه القيم . اما اشكالها المادية التي تتخذها فلا حد لها ، لانها في كل بيئة تستخدم المقدرات الموجودة بها فعلا وتنميتها .

المجتمع الاسلامي اذن - من ناحية شكله وحجمه ونوع الحياة السائدة فيه - ليس صورة تاريخية ثابتة ، لكن وجوده وحضارته يرتكزان الى قيم تاريخية ثابتة .. وحين نقول : « تاريخية » لا نعني الا ان هذه القيم قد عرفت في تاريخ معين .. والا فهي ليست من صنع التاريخ ، ولا علاقة لها بالزمن في طبيعتها .. انها حقيقة جاءت الى البشرية من مصدر رباني .. من وراء الواقع البشري . ومن وراء الوجود المادي أيضا .

والحضارة الاسلامية يمكن ان تتخذ اشكالا متنوعة في تركيبها المادي والتشكيلي ، ولكن الاصول والقيم التي تقوم عليها ثابتة ، لانها هي مقومات هذه الحضارة : (العبودية لله وحده . والتجمع على آصرة العقيدة فيه . واستعلاء انسانية الانسان على المادة . وسيادة القيم الانسانية التي تنمي انسانية الانسان لا حيوانيته .. وحرمة الاسرة . والخلافة في الارض على عهد الله وشرطه .. وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة) ..

ان « أشكال » الحضارة الاسلامية التي تقوم على هذه الاسس الثابتة ، تتأثر بدرجة التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي ، لانها تستخدم الموجود منها فعلا في كل بيئة .. ومن ثم لا بد ان تختلف اشكالها .. لا بد ان تختلف لتضمن المرونة الكافية لدخول كافة البيئات والمستويات في الاطار الاسلامي ، والتكيف بالقيم والمقومات الاسلامية .. وهذه المرونة - في الاشكال الخارجية للحضارة - ليست مفروضة على العقيدة الاسلامية التي تنبثق منها تلك الحضارة انما هي من طبيعتها . ولكن المرونة ليست هي التميع .. والفرق بينهما بعيد جدا !

لقد كان الاسلام ينشئ الحضارة في اواسط افريقية بين العراة .. لانه بمجرد وجوده هناك تكتسي الاجسام العارية ويدخل الناس في حضارة اللباس التي يتضمنها التوجيه الاسلامي المباشر ، ويبدأ الناس في الخروج كذلك من الخمول البليد الى نشاط العمل الموجه لاستغلال كنوز الكون المادي ، ويخرجون كذلك من طور القبيلة - او العشيرة - الى طور الامة ، وينتقلون من عبادة الطوطم المنعزلة الى عبادة رب العالمين .. فما هي الحضارة ان لم تكن هي هذا ؟ .. انها حضارة هذه البيئة ، التي تعتمد على امكانياتها القائمة فعلا .. فأما حين يدخل الاسلام في بيئة اخرى فانه ينشئ - بقيمه الثابتة - شكلا آخر من أشكال الحضارة يستخدم فيه موجودات هذه البيئة وامكانياتها الفعلية وينميها .

وهكذا لا يتوقف قيام الحضارة - بطريقة الاسلام ومنهجه - على درجة معينة من التقدم الصناعي والاقتصادي والعلمي . وان كانت الحضارة حين تقوم تستخدم هذا التقدم - عند وجوده - وتدفعه الى الامام دفعا ، وترفع

أهدافه • كما انها تنشئه انشاء حين لا يكون ، وتكفل نموه
واطراده •• ولكنها تظل في كل حال قائمة على اصولها
المستقلة • ويبقى للمجتمع الاسلامي طابعه الخاص ، وتركيبه
العضوي ، الناشئان عن نقطة انطلاقه الاولى ، التي يتميز
بها من كل مجتمعات الجاهلية ••

« صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ » •••
(البقرة : ١٣٨)



التصور الإسلامي والثقافة

العبودية المطلقة لله وحده هي الشطر الاول لركن الاسلام الاول ، فهي المدلول المطابق لشهادة ان لا اله الا الله ، والتلقي في كيفية هذه العبودية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الشطر الثاني لهذا الركن ، فهو المدلول المطابق لشهادة ان محمدا رسول الله - كما جاء في فصل : « لا اله الا الله منهج حياة » . .

والعبودية المطلقة لله وحده تتمثل في اتخاذ الله وحده الها . . عقيدة وعبادة وشريعة . . فلا يعتقد المسلم ان « الالهية » تكون لاحد غير الله - سبحانه - ولا يعتقد ان « العبادة » تكون لغيره من خلقه ، ولا يعتقد ان « الحاكمية » تكون لاحد من عباده . . كما جاء في ذلك الفصل ايضا .

ولقد أوضحنا هناك مدلول العبودية والاعتقاد والشعائر والحاكمية ، وفي هذا الفصل نوضح مدلول « الحاكمية » وعلاقته « بالثقافة » .

ان مدلول « الحاكمية » في التصور الاسلامي لا ينحصر في تلقي الشرائع القانونية من الله وحده . والتحاكم اليها وحدها . والحكم بها دون سواها . . ان مدلول « الشريعة » في الاسلام لا ينحصر في التشريعات القانونية ، ولا حتى في اصول الحكم ونظامه واوضاعه . ان هذا المدلول الضيق لا يمثل مدلول « الشريعة » والتصور الاسلامي !

ان « شريعة الله » تعني كل ما شرعه الله لتنظيم الحياة البشرية . . وهذا يتمثل في أصول الاعتقاد ، واصول الحكم ، واصول الاخلاق ، واصول السلوك ، واصول المعرفة أيضا .

يتمثل في الاعتقاد والتصور - بكل مقومات هذا التصور - تصور حقيقة الالوهية ، وحقيقة الكون ، غيبه وشهوده ، وحقيقة الحياة ، غيبها وشهودها ، وحقيقة الانسان ، والارتباطات بين هذه الحقائق كلها ، وتعامل الانسان معها .
ويتمثل في الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، والاصول التي تقوم عليها ، لتمثل فيها العبودية الكاملة لله وحده .

ويتمثل في التشريعات القانونية ، التي تنظم هذه الاوضاع . وهو ما يطلق عليه اسم « الشريعة » غالبا بمعناها الضيق الذي لا يمثل حقيقة مدلولها في التصور الاسلامي .

ويتمثل في قواعد الاخلاق والسلوك ، في القيم والموازين التي تسود المجتمع ، ويقوم بها الاشخاص والاشياء والاحداث في الحياة الاجتماعية .

ثم . . يتمثل في « المعرفة » بكل جوانبها ، وفي اصول النشاط الفكري والفني جملة .

وفي هذا كله لا بد من التلقي عن الله ، كالتلقي في الاحكام الشرعية - بمدلولها الضيق المتداول - سواء بسواء . .

والامر في « الحاكمية » - في مدلولها المختص بالحكم والقانون - قد يكون الان مفهوما بعد الذي سقناه بشأنه من تقارير .

والامر في قواعد الاخلاق والسلوك ، وفي القيم والموازين

التي تسود المجتمع ، قد يكون مفهوما كذلك الى حد ما ! اذ أن القيم والموازين وقواعد الاخلاق والسلوك التي تسود في مجتمع ما ترجع مباشرة الى التصور الاعتقادي السائد في هذا المجتمع ، وتتلقى من ذات المصدر الذي تتلقى منه حقائق العقيدة التي يتكيف بها ذلك التصور .

اما الامر الذي قد يكون غريبا - حتى على قراء مثل هذه البحوث الاسلامية ! - فهو الرجوع في شأن النشاط الفكري والفني الى التصور الاسلامي والى مصدره الرباني .

وفي النشاط الفني صدر كتاب كامل يتضمن بيان هذه القضية باعتبار ان النشاط الفني كله ، وهو تعبير انساني عن تصورات الانسان وانفعالاته واستجاباته ، وعن صورة الوجود والحياة في نفس انسانية . . وهذه كلها يحكمها - بل ينشئها - في النفس المسلمة تصورها الاسلامي بشموله لكل جوانب الكون والنفس والحياة ، وعلاقتها ببارئ الكون والنفس والحياة ! وبتصورها خاصة لحقيقة هذا الانسان ، ومركزه في الكون ، وغاية وجوده ، ووظيفته ، وقيم حياته . . وكلها متضمنة في التصور الاسلامي ، الذي ليس هو مجرد تصور فكري . انما هو تصور اعتقادي حي موح مؤثر فعال دافع مسيطر على كل انبعاث في الكيان الانساني (١) .

فاما قضية النشاط الفكري ، وضرورة رد هذا النشاط الى التصور الاسلامي ومصدره الرباني ، تحقيقا للعبودية الكاملة لله وحده ، فهذه هي القضية التي تقتضي منا بيانا كاملا لانها قد تكون بالقياس الى قراء هذا البيان

(١) كتاب « منهج الفن الاسلامي » لمحمد قطب .

— حتى المسلمين منهم الدين يرون حتمية رد الحاكمية
والتشريع لله وحده — غريبة أو غير مطروقة !

ان المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق
العقيدة ، أو التصور العام للوجود ، أو يختص بالعبادة ، أو
يختص بالخلق والسلوك ، والقيم والموازين ، أو يختص
بالمبادئ والاصول في النظام السياسي ، أو الاجتماعي ، أو
الاقتصادي ، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الانساني
وبحركة التاريخ الانساني . . الا من ذلك المصدر الرباني ،
ولا يتلقى في هذا كله الا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ،
ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة .

ولكن المسلم يملك ان يتلقى في العلوم البحتة ،
الكيمياء ، والطبيعة ، والاحياء ، والفلك ، والطب ، والصناعة ،
والزراعة ، وطرق الادارة — من الناحية الفنية الادارية
البحثة — وطرق العمل الفنية ، وطرق الحرب والقتال — من
الجانب الفني — الى آخر ما يشبه هذا النشاط . . يملك
ان يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم . . وان كان
الاصل في المجتمع المسلم حين يقوم ، ان يسعى لتوفير هذه
الكفايات في هذه الحقول كلها ، باعتبارها فروض كفاية ، يجب
ان يتخصص فيها افراد منه . . والا أثم المجتمع كله اذا لم
يوفر هذه الكفايات ، ولم يوفر لها الجو الذي تتكون فيه
وتعيش وتعمل وتنتج . . ولكن الى أن يتحقق هذا فان للفرد
المسلم أن يتلقى في هذه العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية من
المسلم وغير المسلم ، وان ينتفع فيها بجهد المسلم وغير المسلم ،
وان يشغل فيها المسلم وغير المسلم . . لانها من الامور
الداخلة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انتم

اعلم بأمور دنياكم ، . . وهي لا تتعلق بتكوين تصور المسلم عن الحياة والكون والانسان ، وغاية وجوده ، وحقيقة وظيفته ، ونوع ارتباطاته بالوجود من حوله ، بخالق الوجود كله ، ولا تتعلق بالمبادئ والشرائع والانظمة والاضاع التي تنظم حياته افرادا وجماعات . ولا تتعلق بالاخلاق والآداب والتقاليد والعادات والقيم والموازين التي تسود مجتمعه وتؤلف ملامح هذا المجتمع . . ومن ثم فلا خطر فيها من زيغ عقيدته ، او ارتداده الى الجاهلية !

فأما ما يتعلق بتفسير النشاط الانساني كله افرادا او مجتمعات ، وهو المتعلق بالنظرة الى « نفس » الانسان والى « حركة تاريخه » ، وما يختص بتفسير نشأة هذا الكون ، ونشأة الحياة ، ونشأة هذا الانسان ذاته - من ناحية ما وراء الطبيعة - (وهو ما لا تتعلق به العلوم البحتة من كيمياء وطبيعة وفلك وطب . . الخ) فالشأن فيه ، شأن الشرائع القانونية والمبادئ والاصول التي تنظم حياته ونشاطه ، مرتبط بالعقيدة ارتباطا مباشرا ، فلا يجوز للمسلم ان يتلقى فيه الا عن مسلم ، يثق في دينه وتقواه ، ويعلم عنه انه يتلقى في هذا كله عن الله . . والمهم ان يرتبط هذا في حس المسلم بعقيدته ، وان يعلم ان هذا مقتضى عبوديته لله وحده ، او مقتضى شهادته : أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .

انه قد يطلع على كل آثار النشاط الجاهلي . ولكن لا ليكون منه تصوره ومعرفته في هذه الشؤون كلها ، انما ليعرف كيف تنحرف الجاهلية ! وليعرف كيف يصحح ويقوم هذه الانحرافات البشرية ، بردها الى اصولها الصحيحة في مقومات التصور الاسلامي ، وحقائق العقيدة الاسلامية .

ان اتجاهات « الفلسفة » بجملتها ، واتجاهات « تفسير التاريخ الانساني » بجملتها ، واتجاهات « علم النفس »

بجملتها - عدا الملاحظات والمشاهدات دون التفسيرات العامة لها - ومباحث « الاخلاق » بجملتها ، واتجاهات دراسة « الاديان المقارنة » بجملتها ، واتجاهات « التفسيرات والمذاهب الاجتماعية » بجملتها - فيما عدا المشاهدات والاحصائيات والمعلومات المباشرة ، لا النتائج العامة المستخلصة منها ولا التوجيهات الكلية الناشئة عنها - . ان هذه الاتجاهات كلها في الفكر الجاهلي - اي غير الاسلامي - قديما وحديثا ، متأثرة تأثرا مباشرا بتصورات اعتقادية جاهلية ، وقائمة على هذه التصورات ، ومعظمها - ان لم يكن كلها - يتضمن في أصوله المنهجية عدا ظاهرا أو خفيا للتصور الديني جملة ، وللتصور الاسلامي على وجه خاص !

والامر في هذه الالوان من النشاط الفكري - والعلمي ! - ليس كالامر في علوم الكيمياء والطبيعة والفلك والاحياء والطب ، وما اليها - ما دامت هذه في حدود التجربة الواقعية وتسجيل النتائج الواقعية ، دون ان تجاوز هذه الحدود الى التفسير الفلسفي في صورة من صوره ، وذلك كتجاوز الداروينية مثلا لمجال اثبات المشاهدات وترتيبها في علم الاحياء ، الى مجال القول - بغير دليل وبغير حاجة للقول كذلك الاّ الرغبة والهوى - انه لا ضرورة لافتراض وجود قوة خارجة عن العالم الطبيعي لتفسير نشأة الحياة وتطورها .

ان لدى المسلم الكفاية من بيان ربه الصادق عن تلك الشؤون ، وفي المستوى الذي تبدو فيه محاولات البشر في هذه المجالات هزيلة ومضحكة . . فضلا عن أن الامر يتعلق تعلقا مباشرا بالعقيدة ، وبالعبودية الكاملة لله وحده . ان حكاية أن « الثقافة تراث انساني » لا وطن له ولا جنس ولا دين . . هي حكاية صحيحة عندما تتعلق بالعلوم

البحثة وتطبيقاتها العلمية - دون أن تجاوز هذه المنطقة الى التفسيرات الفلسفية « الميتافيزيقية » لنتائج هذه العلوم ، ولا الى التفسيرات الفلسفية لنفس الانسان ونشاطه وتاريخه ، ولا الى الفن والادب والتعبيرات الشعورية جميعا . ولكنها فيما وراء ذلك احدى مصايد اليهود العالمية ، التي يهمنها تميع الحواجز كلها - بما في ذلك ، بل في اول ذلك حواجز العقيدة والتصور - لكي ينفذ اليهود الى جسم العالم كله ، وهو مسترخ مخدر ، يزاول اليهود فيه نشاطهم الشيطاني ، وفي اوله نشاطهم الربوي ، الذي ينتهي الى جعل حصيلة كد البشرية كلها ، تؤول الى اصحاب المؤسسات المالية الربوية من اليهود !

ولكن الاسلام يعتبر أن هناك - فما وراء العلوم البحتة وتطبيقاتها العملية - نوعين اثنين من الثقافة : الثقافة الاسلامية القائمة على قواعد التصور الاسلامي ، والثقافة الجاهلية القائمة على مناهج شتى ترجع كلها الى قاعدة واحدة . . قاعدة اقامة الفكر البشري الها لا يرجع الى الله في ميزانه . . والثقافة الاسلامية شاملة لكل حقول النشاط الفكري والواقعي الانساني ، وفيها من القواعد والمناهج والخصائص ما يكفل نمو هذا النشاط وحيويته دائما .

ويكفي ان نعلم ان الاتجاه التجريبي ، الذي قامت عليه الحضارة الصناعية الاوربية الحاضرة ، لم ينشأ ابتداء في أوربا ، وانما نشأ في الجامعات الاسلامية في الاندلس والمشرق ، مستمدا اصوله من التصور الاسلامي وتوجيهاته ، الى الكون وطبيعته الواقعية ، ومدخراته وأقواته . . ثم استقلت النهضة العلمية في أوربا بهذا المنهج ، واستمرت تنميه وترقيه ، بينما ركذ وترك نهائيا في العالم الاسلامي

بسبب بعد هذا العالم تدريجيا عن الاسلام ، بفعل عوامل بعضها كامن في تركيب المجتمع وبعضها يتمثل في الهجوم عليه من العالم الصليبي والصهيوني ٠٠٠ ثم قطعت اوربا ما بين المنهج الذي اقتبسته وبين أصوله الاعتقادية الاسلامية ، وشردت به نهائيا بعيدا عن الله ، في اثناء شرودها عن الكنيسة ، التي كانت تستطيل على الناس - بغيا وعدوا - باسم الله ! (١)

وكذلك أصبح نتاج الفكر الاوربي بجملته - شأنه شأن انتاج الفكر الجاهلي في جميع الازمان في جميع البقاع - شيئا آخر ، ذا طبيعة مختلفة من اساسها عن مقومات التصور الاسلامي . ومعادية في الوقت ذاته عداء أصيلا للتصور الاسلامي . ووجب على المسلم أن يرجع الى مقومات تصوره وحدها ، والا يأخذ الا من المصدر الرباني ان استطاع بنفسه ، والا فلا يأخذ الا عن مسلم تقي ، يعلم عن دينه وتقواه ما يطمئنه الى الاخذ عنه .



ان حكاية فصل « العلم » عن « صاحب العلم » لا يعرفها الاسلام فيما يختص بكل العلوم المتعلقة بمفاهيم العقيدة المؤثرة في نظرة الانسان الى الوجود والحياة والنشاط الانساني ، والاضاع ، والقيم ، والاخلاق ، والعادات ، وسائر ما يتعلق بنفس الانسان ونشاطه من هذه النواحي .

ان الاسلام يتسامح في ان يتلقى المسلم عن غير المسلم ، أو عن غير التقي من المسلمين ، في علم الكيمياء البحتة ،

(١) راجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : المستقبل لهذا الدين .

أو الطبيعة ، أو الفلك ، أو الطب ، أو الصناعة ، أو الزراعة ،
أو الأعمال الادارية والكتابية . . . وأمثالها . وذلك في الحالات
التي لا يجد فيها مسلماً تقياً يأخذ عنه في هذا كله ، كما هو
واقع من يسمون انفسهم المسلمين اليوم ، الناشئ من
بعدهم عن دينهم ومنهجهم وعن التصور الاسلامي لمقتضيات
الخلافة في الارض - بإذن الله - وما يلزم لهذه الخلافة من
هذه العلوم والخبرات والمهارات المختلفة . . . ولكنه لا يتسامح
في أن يتلقى أصول عقيدته ، ولا مقومات تصوره ، ولا تفسير
قرآنه وحديثه وسيرة نبيه ، ولا منهج تاريخه وتفسير
نشاطه ، ولا مذهب مجتمعه ، ولا نظام حكمه ، ولا منهج
سياسته ، ولا موجبات فنه وأدبه وتعبيره . . . الخ ، من
مصادر غير اسلامية ، ولا أن يتلقى عن غير مسلم يثق في
دينه وتقواه في شيء من هذا كله .

ان الذي يكتب هذا الكلام انسان عاش يقرأ اربعين
سنة كاملة . كان عمله الاول فيها هو القراءة والاطلاع في
معظم حقول المعرفة الانسانية . . ما هو من تخصصه وما
هو من هواياته . . ثم عاد الى مصادر عقيدته وتصوره .
فاذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلاً ضئيلاً الى جانب ذلك
الرصيد الضخم - وما كان يمكن ان يكون الا كذلك - وما
هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره . فانما
عرف الجاهلية على حقيقتها ، وعلى انحرافها ، وعلى ضآلتها ،
وعلى قزامتها . . . وعلى جعجعتها وانتفاشها ، وعلى غرورها
وادعائها كذلك !!! وعلم علم اليقين أنه لا يمكن ان يجمع المسلم
بين هذين المصدرين في التلقي !!!

ومع ذلك فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأياً لي
ابديه . . ان الامر اكبر من ان يفتى فيه بالرأي . . انه أثقل
في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه ، انما هو

قول الله - سبحانه - وقول نبيه صلى الله عليه وسلم ..
نحكّمه في هذا الشأن ، ونرجع فيه الى الله والرسول ، كما
يرجع الذين آمنوا الى الله والرسول فيما يختلفون فيه .

يقول الله - سبحانه - عن الهدف النهائي لليهود
والنصارى في شأن المسلمين بصفة عامة :

« ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم
كفّاراً ، حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق ،
فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ، ان الله على كل
شيء قدير » . . . (البقرة : ١٠٩) .

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع
ملتهم . قل : ان هدى الله هو الهدى . ولئن اتبعت
أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، ما لك من الله من ولي
ولا نصير » . . . (البقرة : ١٢٠) .

« يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا
الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » . . . (آل عمران : ١٠٠) .
ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه
الحافظ ابو يعلى عن حماد عن الشعبي عن جابر - رضي
الله عنهم - :

« لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ، فانهم لن يهدوكم
وقد ضلوا ، وانكم اما أن تصدقوا بباطل ، واما أن تكذبوا
بحق ، وانه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له
الا أن يتبعني » .

وحين يتحدد الهدف النهائي لليهود والنصارى في
شأن المسلمين على ذلك النحو القاطع الذي يقرره الله
سبحانه ، يكون من البلاءة الظن لحظة بأنهم يصعدون عن

نية طيبة في أي مبحث من المباحث المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، أو التاريخ الإسلامي ، أو التوجيه في نظام المجتمع المسلم ، أو في سياسته أو اقتصاده ، أو يقصدون إلى خير ، أو إلى هدى ، أو إلى نور . . . والذين يظنون ذلك فيما عند هؤلاء الناس - بعد تقرير الله سبحانه - إنما هم الغافلون ! كذلك يتحدد من قول الله سبحانه : « قل : إن هدى الله هو الهدى » . . . المصدر الوحيد الذي يجب على المسلم الرجوع إليه في هذه الشؤون ، فليس وراء هدى الله إلا الضلال ، وليس في غيره هدى ، كما تفيد صيغة القصر الواردة في النص : « قل : إن هدى الله هو الهدى » . . . ولا سبيل إلى الشك في مدلول هذا النص ، ولا إلى تأويله كذلك !

كذلك يرد الأمر القاطع بالأعراض عن يتولى عن ذكر الله ، ويقصر اهتمامه على شؤون الحياة الدنيا ، وينص على أن مثل هذا لا يعلم إلا ظنا ، والمسلم منهي عن اتباع الظن ، وأنه لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فهو لا يعلم علما صحيحا .

« فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بمن اهتدى » . . .

(النجم : ١٩ - ٢٠)

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة هم غافلون » . . .

(الروم : ٧)

والذي يغفل عن ذكر الله ، ولا يريد إلا الحياة الدنيا - وهو شأن جميع « العلماء ! » اليوم - لا يعلم إلا هذا الظاهر ، وليس هذا هو « العلم » الذي يثق المسلم في صاحبه فيتلقى

عنه في كل شأنه ، انما يجوز أن يتلقى عنه في حدود علمه
المادي البحت ، ولا يتلقى منه تفسيراً ولا تأويلاً عاماً
للحياة ، او النفس ، او متعلقاتها التصورية . . . كما أنه ليس
هو العلم الذي تشير اليه الآيات القرآنية وتثني عليه ، كقوله
تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »
كما يفهم الذين ينتزعون النصوص القرآنية من سياقها
ليستشهدوا بها في غير مواضعها ؟ فهذا السؤال التقريري
وارد في آية هذا نصها الكامل :

« ام من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر
الآخرة ويرجو رحمة ربه ؟ قل : هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر اولو الالباب » . . . (الزمر: ٩)
فهذا القانت آناء الليل ، ساجدا وقائماً ، يحذر الآخرة
ويرجو رحمة ربه . . . هو هذا الذي يعلم . . . وهذا هو العلم
. . . الذي تشير اليه الآية ، العلم الذي يهدي الى الله
وتقواه . . . لا العلم الذي يفسد الفطر فتلخد في الله !

ان العلم ليس مقصوراً على علم العقيدة والفرائض
الدينية والشرائع . . . فالعلم يشتمل كل شيء ، ويتعلق
بالقوانين الطبيعية وتسخيرها في خلافة الارض تعلقه بالعقيدة
والفرائض والشرائع . . . ولكن العلم الذي ينقطع عن قاعدته
الايمانية ليس هو العلم الذي يعنيه القرآن ويثني على
أهله . . . ان هناك ارتباطاً بين القاعدة الايمانية وعلم الفلك ،
وعلم الاحياء ، وعلم الطبيعة ، وعلم الكيمياء ، وعلم طبقات
الارض . . . وسائر العلوم المتعلقة بالنواميس الكونية ،
والقوانين الحيوية . . . انها كلها تؤدي الى الله ، حين لا
يستخدمها الهوى المنحرف للابتعاد عن الله . . . كما اتجه
المنهج الاوربي في النهضة العلمية - مع الاسف - بسبب تلك
الملابس النكدة التي قامت في التاريخ الاوربي خاصة ، بين

المشتغلين بالعلم وبين الكنيسة الفاشمة ! ثم ترك آثاره العميقة في مناهج الفكر الاوربي كلها ، وفي طبيعة التفكير الاوربي ، وترك تلك الرواسب المسممة بالعداء لاصل التصور الديني جملة - لا لاصل التصور الكنسي وحده ولا للكنيسة وحدها - في كل ما أنتجه الفكر الاوربي ، في كل حقل من حقول المعرفة ، سواء كانت فلسفة ميتافيزيقية ، أو كانت بحوثا علمية بحثة لا علاقة لها - في الظاهر - بالموضوع الديني ! (١)

واذا تقرر أن مناهج الفكر الغربي ، ونتاج هذا الفكر في كل حقول المعرفة ، يقوم ابتداء على أساس تلك الرواسب المسممة بالعداء لاصل التصور الديني جملة ، فإن تلك المناهج وهذا النتاج أشد عداء للتصور الاسلامي خاصة ، لانه يعتمد هذا العداء بصفة خاصة ، ويتحرى في حالات كثيرة - في خطة متعمدة - تمييز العقيدة والتصور والمفاهيم الاسلامية ، ثم تحطيم الاسس التي يقوم عليها تميز المجتمع المسلم في كل مقوماته .

ومن ثم يكون من الغفلة المزرية الاعتماد على مناهج الفكر الغربي ، وعلى نتاجه كذلك ، في الدراسات الاسلامية . . . ومن ثم تجب الحيطنة كذلك في أثناء دراسة العلوم البحتة - التي لا بد لنا في موقفنا الحاضر من تلقئها من مصادرها الغربية - من أية ظلال فلسفية تتعلق بها ، لان هذه الظلال معادية في أساسها للتصور الديني جملة ، وللتصور الاسلامي بصفة خاصة . وأي قدر منها يكفي لتسميم ينبوع الاسلامي الصافي . . .

(١) يراجع فصل : « الفصام إنكد » في كتاب « المستقبل لهذا الدين » .

جَنَسِيَّةُ الْمُسْلِمِ وَعَقِيدَتُهُ

جاء الاسلام الى هذه البشرية بتصور جديد لحقيقة الروابط والوشائج ، يوم جاءها بتصور جديد لحقيقة القيم والاعتبارات ، ولحقيقة الجهة التي تتلقى منها هذه القيم وهذه الاعتبارات .

جاء الاسلام ليرد الانسان الى ربه ، وليجعل هذه السلطة هي السلطة الوحيدة التي يتلقى منها موازينه وقيمه ، كما تلقى منها وجوده وحياته ، والتي يرجع اليها بروابطه ووشائجه ، كما أنه من ارادتها صدر واليها يعود .

جاء ليقرر ان هناك وشيعة واحدة تربط الناس في الله فاذا انبتت هذه الوشيعة فلا صلة ولا مودة :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم وابناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم » . . . (المجادلة : ٢٢) .

وان هناك حزبا واحدا لله لا يتعدد ، وأحزابا أخرى كلها للشيطان وللطاغوت :

« الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفا » . . . (النساء : ٧٦) .

وأن هناك طريقا واحدا يصل الى الله وكل طريق آخر لا يؤدي اليه :

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » ٠٠٠ (الانعام : ١٥١)

وأن هناك نظاما واحدا هو النظام الاسلامي وما عداها من النظم فهو جاهلية :

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » (المائدة : ٥٠)

وان هناك شريعة واحدة هي شريعة الله وما عداها فهو هوى :

« ثم جعلنا على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون » ٠٠٠ (الجاثية : ١٨)

وأن هناك حقا واحدا لا يتعدد ، وما عداها هو الضلال :

« فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ فاني تصرفون ؟ » ٠٠ (يونس : ٣٢)

وان هناك دارا واحدة هي دار الاسلام ، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة ، فتهيمن عليها شريعة الله ، وتقام فيها حدوده ، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضا . وما عداها فهو دار حرب ، علاقة المسلم بها اما القتال ، واما المهادنة على عهد أمان . ولكنها ليست دار اسلام ، ولا ولاء بين أهلها وبين المسلمين :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك بعضهم أولياء بعض ، والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وان استنصروكم في الدين فعليكم

النصر - الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق - والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم اولياء بعض ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله اولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وجاهروا جاهدوا معكم فأولئك منكم .»

(الأنفال : ٧٢ - ٧٥)

بهذه النصاعة الكاملة، وبهذا الجزم القاطع جاء الاسلام . . . جاء ليرفع الانسان ويخلصه من وشائج الارض والطين ، ومن وشائج اللحم والدم - وهي من وشائج الارض والطين - فلا وطن للمسلم الا الذي تقام فيه شريعة الله ، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله ، ولا جنسية للمسلم الا عقيدته التي تجعله عضوا في « الامة المسلمة » في « دار الاسلام » ، ولا قرابة للمسلم الا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله ، فتصل الوشيعة بينه وبين أهله في الله . . .

ليست قرابة المسلم أباه وأمه وأخاه وزوجه وعشيرته ، ما لم تنعقد الآصرة الاولى في الخالق ، فتتصل من ثم بالرحم :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام » . . .

(النساء : ١)

ولا يمنع هذا من مصاحبة الوالدين بالمعروف مع اختلاف العقيدة ما لم يقفا في الصف المعادي للجبهة المسلمة ، فعندئذ لا صلة ولا مصاحبة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي يعطينا المثل في جلاء :

روى ابن جرير بسنده عن ابن زياد قال : دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عبدالله بن عبدالله بن أبي قال : ألا ترى ما يقول أبوك ؟ قال ما يقول أبي ؟ - بأبي أنت وأمي - قال : يقول : لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل . فقال : فقد صدق والله يا رسول الله . أنت والله الاعز وهو الاذل . أما والله لقد قدمت المدينة يا رسول الله وإن أهل يثرب ليعلمون ما بها أحد أبر بوالده مني . ولئن كان يرضي الله ورسوله أن آتيهما برأسه لآتيهما به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا » . فلما قدموا المدينة قام عبدالله بن عبدالله بن أبي على بابها بالسيف لآبيه ، قال : أنت القائل : لان رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل ؟ أما والله لتعرفن العزة لك أو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ والله لا يأويك ظلها ولا تأويه أبدا الا باذن من الله ورسوله . فقال : يا للخزرج ! ابني يمنعني بيتي ! يا للخزرج ابني يمنعني بيتي ! فقال : والله لا يأويه أبدا الا باذن منه . فاجتمع اليه رجال فكلموه فقال : والله لا يدخلن الا باذن من الله ورسوله . فأتوا النبي - صلى الله عليه وسلم - فأخبروه فقال : « اذهبوا اليه فقولوا له : خله ومسكنه » . فأتوه فقال : أما اذ جاء أمر النبي صلى الله عليه وسلم فنعم . . .

فاذا انعقدت آصرة العقيدة فالمؤمنون كلهم اخوة ، ولو لم يجمعهم نسب ولا صهر : « انما المؤمنون اخوة » . . . على سبيل القصر والتوكيد :

« ان الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » . . .

(الانفال : ٧٢)

وهي ولاية تتجاوز الجيل الواحد الى الاجيال المتعاقبة ،
وتربط أول هذه الامة بآخرها ، وآخرها بأولها ، برباط
الحب والمودة والولاء والتعاطف المكين :

« والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من
هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ،
ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق
شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم
يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا
تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا انك رؤوف رحيم » .
(الحشر : ٩ - ١٠)



ويضرب الله الامثال للمسلمين بالرهط الكريم من
الانبياء الذين سبقوهم في موكب الايمان الضارب في شعاب
الزمان :

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب ان ابني من أهلي ، وان
وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » . قال : يا نوح انه ليس
من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به
علم ، اني أعظك أن تكون من الجاهلين » . قال : رب اني أعوذ
بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، والا تغفر لي وترحمني
أكن من الخاسرين »
(هود : ٤٥ - ٤٧)

« واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتهمن ، قال : انسي
جاعلك للناس اماما » . قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدي
الظالمين »
(البقرة : ١٢٤)

« واذا قال ابراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا ، وارزق

أهله من الثمرات . . من آمن منهم بالله واليوم الآخر . .
قال : ومن كفر فأمّته قليلا ثم اضطره السي عذاب النار
وبئس المصير . . . (البقرة : ١٢٦)

ويعتزل ابراهيم أباه وأهله حين يرى منهم الاصرار
على الضلال :

« وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى
ألا أكون بدعاء ربي شقيا » . . . (مريم : ٤٨)

ويحكي الله عن ابراهيم وقومه ما فيه أسوة وقدوة :
« قد كانت لكم أسوة حسنة في ابراهيم والذين معه ،
اذ قالوا لقومهم : انّا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ،
كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى
تؤمنوا بالله وحده » . (الممتحنة : ٤)

والفتية أصحاب الكهف يعتزلون أهلهم وقومهم وأرضهم
ليخلصوا لله بدينهم ، ويفرّوا الى ربهم بعقيدتهم ، حين عز
عليهم أن يجدوا لها مكانا في الوطن والاهل والعشيرة :

« انهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على
قلوبهم اذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والارض ، لن
ندعو من دونه إلها ، لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا
اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن ! فمن
أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ واذا اعتزلتموهم وما يعبدون
- الا الله - فأووا الى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ،
ويهيئ لكم من أمركم مرفقا » . . . (الكهف : ١٣ - ١٦)

وامرأة نوح وامرأة لوط يفرق بينهما وبين زوجيهما
حين تفرق العقيدة :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط

كانتا تحت عبيدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا
عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ، ..
(التحريم : ١٠)

وامرأة فرعون على الضفة الاخرى :
« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون اذ قالت :
رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ، ونجّني من فرعون وعمله ،
ونجّني من القوم الظالمين ، ... » (التحريم : ١١)

وهكذا تتعدد الامثال في جميع الوشائج والروابط ..
وشيجة الابوة في قصة نوح ، وشيجة البنوة والوطن في
قصة ابراهيم ، وشيجة الاهل والعشيرة والوطن جميعا في
قصة اصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية في قصص امرأتي
نوح ولوط وامرأة فرعون ..

وهكذا يمضي الموكب الكريم في تصوره لحقيقة الروابط
والوشائج .. حتى تجيء الامة الوسط ، فتجد هذا الرصيد
من الامثال والنماذج والتجارب ، فتمضي على النهج الرباني
للامة المؤمنة ، وتفترق العشيرة الواحدة ، ويفترق البيت
الواحد ، حين تفترق العقيدة ، وحيث تنبت الوشيجة الاولى ،
ويقول الله سبحانه في صفة المؤمنين قوله الكريم :

« لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من
حادّ الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو ابناؤهم أو اخوانهم
أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الايمان وأيّدهم بروح
منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ،
رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، الا ان
حزب الله هم المفلحون ، ... » (المجادلة : ٢٢)

وحين انبتت وشيجة القرابة بين محمد - صلى الله
عليه وسلم - وبين عمه أبي لهب ، وابن عمه عمرو بن هشام

(أبو جهل) وحين قاتل المهاجرون أهلهم وأقرباءهم وقتلوهم يوم بدر .. حينئذ اتصلت وشيجة العقيدة بين المهاجرين والانصار ، فاذا هم أهل وأخوة ، واتصلت الوشيجة بين المسلمين العرب وأخوانهم : صهيب الرومي ، وبلال الحبشي ، وسلمان الفارسي . وتوارت عصبية القبيلة ، وعصبية الجنس ، وعصبية الأرض . وقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « دعوها فانها منتنة » .. وقال لهم : « ليس منّا من دعا الى عصبية ، وليس منّا من قاتل على عصبية ، وليس منّا من مات على عصبية » .. فانتهى أمر هذا النتن .. نتن عصبية النسب . وماتت هذه النعرة .. نعرة الجنس ، واختفت تلك اللوثة .. لوثة القوم ، واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، بعيدا عن نتن اللحم والدم ، ولوثة الطين والأرض .. منذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، انما عاد وطنه هو « دار الاسلام » الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها ، الدار التي يأوي اليها ويدافع عنها ، ويستشهد لحمايتها ومد رقعته .. وهي « دار الاسلام » لكل من يدين بالاسلام عقيدة ويرتضي شريعته شريعة . وكذلك لكل من يرتضي شريعة الاسلام نظاما - ولو لم يكن مسلما - كأصحاب الديانات الكتابية الذين يعيشون في « دار الاسلام » .. والأرض التي لا يهيمن فيها الاسلام ولا تحكم فيها شريعته هي « دار الحرب » بالقياس الى المسلم ، والى الذمي المعاهد كذلك .. يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده ، وفيها قرابته من النسب وصهره ، وفيها أمواله ومنافعه .

وكذلك حارب محمد - صلى الله عليه وسلم - مكة وهي مسقط رأسه ، وفيها عشيرته وأهله ، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها . فلم تصبح دار اسلام

له ولأمته الا حين دانت للاسلام وطبقت فيها شريعته .

هذا هو الاسلام . . هذا هو وحده . . فالاسلام ليس كلمة تقال باللسان ، ولا ميلادا في أرض عليها لافتة اسلامية وعنوان اسلامي ! ولا وراثة مولد في بيت ابواه مسلمان .
« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » .
(النساء : ٦٥)

هذا هو وحده الاسلام ، وهذه هي وحدها دار الاسلام . . لا الارض ولا الجنس ، ولا النسب ولا الصهر ، ولا القبيلة ، ولا العشيرة .

لقد أطلق الاسلام البشر من اللصوق بالطين ليتطلعوا الى السماء ، وأطلقهم من قيد الدم . . قيد البهيمة . . ليرتفعوا في عليين .

وطن المسلم الذي يحن اليه ويدفع عنه ليس قطعة أرض ، وجنسية المسلم التي يعرف بها ليست جنسية حكم ، وعشيرة المسلم التي يأوي اليها ويدفع عنها ليست قرابة دم ، وراية المسلم التي يعتز بها ويستشهد تحتها ليست راية قوم ، وانتصار المسلم الذي يهفوا اليه ويشكر الله عليه ليس غلبة جيش . انما هو كما قال الله عنه :

« اذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، انه كان توابا » . . .
(سورة النصر)

انه النصر تحت راية العقيدة دون سائر الرايات .
والجهاد لنصرة دين الله وشريعته لا لأي هدف من الاهداف ،

والذياد عن « دار الاسلام » بشروطها تلك لا أية دار ، والتجرد بعد هذا كله لله ، لا لمغنم ولا لسمعة ، ولا حمية لارض أو قوم ، أو ذود عن أهل أو ولد ، الا لحمايتهم من الفتنة عن دين الله :

عن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، اي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »
وفي هذا وحده تكون الشهادة لا في أية حرب لاي هدف غير هذا الهدف الواحد . . لله . .

وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته ، وتصده عن دينه ، وتعطل عمل شريعته ، فهي « دار حرب » ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته . . وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته ، فهي « دار اسلام » ولو لم يكن له فيها أهل ولا عشيرة ، ولا قوم ولا تجارة .

الوطن : دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله . . هذا هو معنى الوطن اللائق « بالانسان » . والجنسية : عقيدة ومنهاج حياة . وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين .

ان عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والارض عصبية صغيرة متخلفة . . عصبية جاهلية عرفت بالبشرية في فترات انحطاطها الروحي ، وسماها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « منتنة » بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز .

ولما ادعى اليهود أنهم شعب الله المختار بجنسهم وقومهم ردّ الله عليهم هذه الدعوى ، ورد ميزان القيم الى

الايمان وحده على توالي الاجيال ، وتغاير الاقوام والاجناس
والاوطان :

« وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا • قل : بل
ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين • قولوا : آمنا بالله
وما أنزل إلينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق
ويعقوب والاسباط • وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي
النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون •
فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وان تولوا فانما هم
في شقاق ، فسيكفيكم الله ، وهو السميع العليم • صبغة
الله ومن أحسن من الله صبغة • ونحن له عابدون ، ...
(البقرة : ١٣٦ - ١٣٧)

فأما شعب الله المختار حقا فهو الامة المسلمة التي
تستظل براية الله على اختلاف ما بينها من الاجناس والاقوام
والالوان والاطان : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون
بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ... »

الامة التي يكون من الرعيل الاول فيها أبو بكر العربي ،
وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي ،
واخوانهم الكرام • والتي تتوالى اجيالها على هذا النسق
الرائع • • الجنسية فيها هي العقيدة ، والوطن فيها هو دار
الاسلام ، والحاكم فيها هو الله ، والدستور فيها هو
القرآن •

هذا التصور الرفيع للدار وللجنسية وللقرابة هو الذي
ينبغي أن يسيطر على قلوب أصحاب الدعوة الى الله ، والذي
ينبغي أن يكون من الوضوح بحيث لا تختلط به أوشاب
التصورات الجاهلية الدخيلة ، ولا تتسرب اليه صور

الشرك الخفية : الشرك بالارض ، والشرك بالجنس ، والشرك بالقوم ، والشرك بالنسب ، والشرك بالمنافع الصغيرة القريبة ، تلك التي يجمعها الله سبحانه في آية واحدة فيضعها في كفة ، ويضع الايمان ومقتضياته في كفة اخرى ، ويدع للناس الخيار :

« قل : ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتركبوا حتى يأتي الله بأمره .. والله لا يهدي القوم الفاسقين ، ... » (التوبة : ٢٤)

كذلك لا ينبغي أن تقوم في نفوس أصحاب الدعوة الى الله تلك الشكوك السطحية في حقيقة الجاهلية وحقيقة الاسلام ، وفي صفة دار الحرب ودار الاسلام .. فمن هنا يؤتى الكثير منهم في تصوراته و يقينه .. انه لا اسلام في أرض لا يحكمها الاسلام ، ولا تقوم فيها شريعته ، ولا دار اسلام الا التي يهيمن عليها الاسلام بمنهجه وقانونه ، وليس وراء الايمان الا الكفر ، وليس دون الاسلام الا الجاهلية .. وليس بعد الحق الا الضلال ..

نقطة بعيدة

هناك حقيقة أولية ، ينبغي أن تكون واضحة في نفوسنا تماما ونحن نقدم الاسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء . . . هذه الحقيقة تنبثق من طبيعة الاسلام ذاته ، وتنبع من تاريخه .

ان الاسلام تصور مستقل للوجود والحياة ، تصور كامل ذو خصائص متميزة ، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها ، بكل مقوماتها وارتباطاتها ، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة .

هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديما وحديثا . وقد يلتقي مع هذه التصورات في جزئيات عرضية جانبية ، ولكن الاصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرفت البشرية من نظائرها .

ووظيفة الاسلام الاولى هي أن ينشئ حياة انسانية توافق هذا التصور ، وتمثله في صورة واقعية ، وأن يقيم في الارض نظاما يتبع المنهج الرباني الذي اختاره الله ، وهو يخرج هذه الامة المسلمة لتمثله وتقوم عليه ، وهو - سبحانه - يقول :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » . . .

(آل عمران : ١١٠)

ويقول في صفة هذه الامة : « الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهؤا عن المنكر » (الحج : ٤١)

وليست وظيفة الاسلام اذن ان يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الارض ، ولا الاوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان . . لم تكن هذه وظيفته يوم جاء ، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل . . فالجاهلية هي الجاهلية ، الجاهلية هي الانحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الالهي في الحياة ، واستنباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الالهي . . الاسلام وهو الاسلام ، ووظيفته هي نقل الناس من الجاهلية الى الاسلام !

الجاهلية هي عبودية الناس للناس : بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله ، كائنة ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع ! . .

والاسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد !

هذه الحقيقة المنبثقة من طبيعة الاسلام ، وطبيعة دوره في الارض ، هي التي يجب أن نقدم بها الاسلام للناس : الذين يؤمنون به والذين لا يؤمنون به على السواء !

ان الاسلام لا يقبل انصاف الحلول مع الجاهلية . لا من ناحية التصور ، ولا من ناحية الاوضاع المنبثقة من هذا التصور . . فاما اسلام واما جاهلية . وليس هنالك وضع

آخر نصفه اسلام ونصفه جاهلية ، يقبله الاسلام ويرضاه . .
فنظرة الاسلام واضحة في ان الحق واحد لا يتعدد ، وان
ما عدا هذا الحق فهو الضلال . وهما غير قابلين للتلبس
والامتزاج . وانه اما حكم الله واما حكم الجاهلية ، واما
شريعة الله ، واما الهوى . . والآيات القرآنية في هذا
المعنى متواترة كثيرة :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم ،
واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك » . .
(المائدة : ٤٩)

« فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع
أهواءهم » . (الشورى : ١٥)

« فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون أهواءهم .
ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله؟ ان الله لا
يهدي القوم الظالمين » . . (القصص : ٥٠)

« ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولا تتبع
أهواء الذين لا يعلمون ، انهم لن يغفوا عنك من الله شيئا ،
وان الظالمين بعضهم اولياء بعض . والله ولي المتقين » . .
(الجاثية : ١٨)

« أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن احسن من الله حكما
لقوم يوقنون » . . (المائدة : ٥٠)

فهما امران لا ثالث لهما . اما الاستجابة لله والرسول ،
واما اتباع الهوى . اما حكم الله واما حكم الجاهلية . اما
الحكم بما أنزل الله كله واما الفتنة عما أنزل الله . . وليس
بعد هذا التوكيد الصريح الجازم من الله سبحانه مجال
للجدال او للمحال . .

وظيفة الاسلام اذن هي اقضاء الجاهلية من قيادة البشرية ، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص ، المستقل الملامح ، الاصيل الخصائص . . يريد بهذه القيادة الرشيدة الخير للبشرية واليسر . الخير الذي ينشأ من رد البشرية الى خالقها ، واليسر الذي ينشأ من التنسيق بين حركة البشرية ، وتولي هذه القيادة على منهجه الخاص ، المستقل ترتفع الى المستوى الكريم الذي اراده الله لها ، وتخلص من حكم الهوى . أو كما قال رباعي بن عامر حين سأله رستم قائد الفرس : ما الذي جاء بكم؟ فكان جوابه : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ؟ ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » .

لم يجيء الاسلام اذن ليربت على شهوات الناس الممثلة في تصوراتهم وأنظمتهم وأوضاعهم وعاداتهم وتقاليدهم . . سواء منها ما عاصر مجيء الاسلام ، أو ما تخوض البشرية فيه الان ، في الشرق أو في الغرب سواء . . انما جاء ليلغي هذا كله الغاء ، وينسخه نسخا ، ويقيم الحياة البشرية على أسسه الخاصة . جاء لينشئ الحياة انشاء . لينشئ حياة تنبثق منه انبثاقا ، وترتبط بمحوره ارتباطا . وقد تشابه جزئيات منه جزئيات في الحياة التي يعيشها الناس في الجاهلية . ولكنها ليست هي ، وليست منها . انما هي مجرد مصادفة هذا التشابه الظاهري الجانبي في الفروع . أما أصل الشجرة فهو مختلف تماما . تلك شجرة تطلعها حكمة الله ، وهذه شجرة تطلعها أهواء البشر :

« والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذي خبث لا يخرج الا نكدا » . . (الاعراف : ٥٨)

وهذه الجاهلية خبث قديما وخبث حديثا . . يختلف

حبثها في مظهره وشكله ، ولكنه واحد في مغرسه وأصله
انه هوى البشر الجاهل المغرضين ، الذين لا يملكون التخلص
من جهلهم وغرضهم ، ومصلحة أفراد منهم أو طبقات أو
أمم أو اجناس يغلبونها على العدل والحق والخير . حتى
تجيء شريعة الله فتتسخ هذا كله ، وتشرع للناس جميعا
تشريعا لا يشوبه جهل البشر ، ولا يلوّثه هواهم ، ولا تميل
به مصلحة فريق منهم .

ولأن هذا هو الفارق الاصيل بين طبيعة منهج الله
ومناهج الناس ، فانه يستحيل الالتقاء بينهما في نظام واحد ،
ويستحيل التوفيق بينهما في وضع واحد . ويستحيل تلفيق
منهج نصفه من هنا ونصفه من هناك . وكما أن الله لا يغفر
أن يشرك به . فكذلك هو لا يقبل منهجا مع منهجه . . هذه
كتلك سواء بسواء . لان هذه هي تلك على وجه اليقين .

هذه الحقيقة ينبغي ان تكون من القوة والوضوح في
نفوسنا ونحن نقدم الاسلام للناس بحيث لا نتلجلج في الادلاء
بها ولا نتلعثم ، ولا ندع الناس في شك منها ، ولا نتركهم حتى
يستيقنوا ان الاسلام حين يفيثون اليه سيبدل حياتهم
تبديلا . . سيبدل تصوراتهم عن الحياة كلها . كما سيبدل
اوضاعهم كذلك . سيبدلها ليعطيهم خيرا منها بما لا يقاس .
سيبدلها ليرفع تصوراتهم ويرفع اوضاعهم ، ويجلعهم أقرب
الى المستوى الكريم اللائق بحياة الانسان . ولن يبق لهم
شيئا من أوضاع الجاهلية الهابطة التي هم فيها ، اللهم الا
الجزئيات التي يتصادف ان يكون لها من جزئيات النظام
الاسلامي شبيه . وحتى هذه لن تكون هي بعينها ، لأنها
ستكون مشدودة الى أصل كبير يختلف اختلافا بيّنا عن
الأصل الذي هم مشدودون اليه الان : أصل الجاهلية النكد
الخبث ! وهو في الوقت ذاته لن يسلبهم شيئا من المعرفة

« العلمية البحتة » بل سيدفعها قوية الى الامام ..

يجب ألا ندع الناس حتى يدركوا ان الاسلام ليس هو
أي مذهب من المذاهب الاجتماعية الوضعية ، كما أنه ليس
أي نظام من أنظمة الحكم الوضعية .. بشتى اسمائها وشيائها
وراياتها جميعا .. وانما هو الاسلام فقط ! الاسلام
بشخصيته المستقلة وتصوره المستقل ، وأوضاعه المستقلة .
الاسلام الذي يحقق للبشرية خيرا مما تعلم به كله من وراء
هذه الاوضاع . الاسلام الرفيع النظيف المتناسق الجميل
الصادر مباشرة من الله العلي الكبير .



و حين ندرك حقيقة الاسلام على هذا النحو ، فان هذا
الادراك بطبيعته سيجعلنا نخاطب الناس ونحن نقدم لهم
الاسلام ، في ثقة وقوة ، وفي عطف كذلك ورحمة .. ثقة
الذي يستيقن أن ما معه هو الحق وأن ما عليه الناس هو
الباطل . وعطف الذي يرى شقوة البشر ، وهو يعرف كيف
يسعدهم . ورحمة الذي يرى ضلال الناس وهو يعرف أين
الهدى الذي ليس بعده هدى !

لن نتدسس اليهم بالاسلام تدسسا . ولن نربت على
شهواتهم وتصوراتهم المنحرفة .. سنكون صرحاء معهم غاية
الصراحة .. هذه الجاهلية التي أنتم فيها نجس والله يريد
أن يطهركم .. هذه الاوضاع التي أنتم فيها خبث ، والله
يريد أن يطيبكم .. هذه الحياة التي تحيونها دون ، والله
يريد أن يرفعكم .. هذا الذي أنتم فيه شقوة وبؤس ونكد ،
والله يريد أن يخفف عنكم ويرحمكم ويسعدكم .. والاسلام
سيغير تصوراتكم واوضاعكم وقيمكم ، وسيرفعكم الى
حياة أخرى تنكرون معها هذه الحياة التي تعيشونها ، والى

أوضاع أخرى تحتقرون معها أوضاعكم في مشارق الأرض
ومغاربها ، وإلى قيم أخرى تشتمنون معها من قيمكم
السائدة في الأرض جميعاً . . . وإذا كنتم انتم - لشقوتكم -
لم تروا صورة واقعية للحياة الإسلامية ، لأن أعداءكم - أعداء
هذا الدين - يتكثرون للحيلولة دون قيام هذه الحياة ، ودون
تجسد هذه الصورة ، فنحن قد رأيناها - والحمد لله ممثلة
في ضمائرنا من خلال قرآننا وشريعتنا وتاريخنا وتصورنا
المبدع للمستقبل الذي لا نشك في مجيئه !



هكذا ينبغي أن نخاطب الناس ونحسن تقديم لهم
الإسلام . لأن هذه هي الحقيقة ، ولأن هذه هي الصورة التي
خاطب الإسلام الناس بها أول مرة . سواء في الجزيرة العربية
أم في فارس أم في الروم . أم في أي مكان خاطب الناس
فيه .

نظر إليهم من عل ، لأن هذه هي الحقيقة . وخاطبهم
بلغة الحب والعطف لأنها حقيقة كذلك في طبيعته . وفاصلهم
مفاصلة كاملة لا غموض فيها ولا تردد لأن هذه هي طريقته . .
ولم يقل لهم أبداً : إنه لن يمس حياتهم وأوضاعهم وتصوراتهم
وقيمهم إلا بتعديلات طفيفة ! أو إنه يشبه نظمهم وأوضاعهم
التي ألفوها . . كما يقول بعضنا اليوم للناس وهو يقدم
إليهم الإسلام . . مرة تحت عنوان : « ديمقراطية الإسلام » !
ومرة تحت عنوان « اشتراكية الإسلام » ! ومرة بأن الأوضاع
الاقتصادية والسياسية والقانونية القائمة في عالمهم لا تحتاج
من الإسلام إلا لتعديلات طفيفة !!! إلى آخر هذا التدسس
الناعم والتربيت على الشهوات !

كلا . أن الأمر مختلف جداً . والانتقال من هذه

الجاهلية التي تعم وجه الارض الى الاسلام نقلة واسعة بعيدة ، وصورة الحياة الاسلامية مغايرة تماما لصور الحياة الجاهلية قديما وحديثا . وهذه الشقوة التي تعانيها البشرية لن يرفعها عنها تغييرات طفيفة في جزئيات النظم والاوزاع . ولن ينجي البشر منها الا تلك النقلة الواسعة البعيدة . النقلة من مناهج الخلق الى منهج الخالق ، ومن نظم البشر الى نظام رب البشر ، ومن احكام العبيد الى حكم رب العبيد .

هذه حقيقة . وحقيقة مثلها أن نجهر بها ونصدع ، وألا ندع الناس في شك منها ولا لبس .

وقد يكره الناس هذا في أول الامر ، وقد يجفلون منه ويشفقون . ولكن الناس كذلك كرهوا مثل هذا وأشفقوا منه في أول العهد بالدعوة الى الاسلام . أجفلوا وآذاهم أن يحقر محمد - صلى الله عليه وسلم - تصوراتهم ، ويعيب آلهتهم ، وينكر اوضاعهم ، ويعتزل عاداتهم وتقاليدهم ، ويتخذ لنفسه وللقلة المؤمنة معه اوضاعا وقيما وتقاليده غير اوضاع الجاهلية وقيمها وتقاليدها .

ثم ماذا ؟ ثم فاؤوا الى الحق الذي لم يعجبهم اول مرة ، والذي أجفلوا منه : « كأنهم حمر مستنفرة فرّت من قسورة » . (المدثر : ٥٠ - ٥١) والذي حاربوه ودافعوه بكل ما يملكون من قوة وحيلة ، والذي عذبوا أهله عذابا شديدا وهم ضعاف في مكة ، ثم قاتلوهم قتالا عنيدا وهم اقوياء في المدينة .

ولم تكن الدعوة في أول عهدها في وضع أقوى ولا أفضل منها الان . كانت مجهولة مستنكرة من الجاهلية ، وكانت محصورة في شعاب مكة ، مطاردة من أصحاب الجاه والسلطان فيها ، وكانت غريبة في زمانها في العالم كله . وكانت تحف

بها امبراطوريات ضخمة عاتية تنكر كل مبادئها وأهدافها .
ولكنها مع هذا كله كانت قوية ، كما هي اليوم قوية ، وكما
هي غدا قوية .. ان عناصر القوة الحقيقية كامنة في طبيعة
هذه العقيدة ذاتها . ومن ثم فهي تملك ان تعمل في أسوأ
الظروف وأشدّها حرجا . انها تكمن في الحق البسيط
الواضح الذي تقوم عليه . وفي تناسقها مع الفطرة التي لا
تملك أن تقاوم سلطانها طويلا ، وفي قدرتها على قيادة البشرية
صعدا في طريق التقدم ، في أية مرحلة كانت البشرية من
التأخر أو التقدم الاقتصادي والاجتماعي والعلمي والعقلي ..
كما انها تكمن في صراحتها هذه وهي تواجه الجاهلية بكل
قواها المادية فلا تخرم حرفا واحدا من أصولها ، ولا تربت
على شهوات الجاهلية ، ولا تتدسس اليها تدسسا . انما
تصدع بالحق صدعا مع اشعار الناس بأنها خير ورحمة
وبركة ..

والله الذي خلق البشر يعلم طبيعة تكوينهم ومداخل
قلوبهم ويعلم كيف تستجيب حين تصدع بالحق صدعا . في
صراحة وقوة ، وبلا تلثم ولا وصوصة !

ان النفس البشرية فيها الاستعداد للانتقال الكامل من
حياة الى حياة . وذلك قد يكون أيسر عليها من التعديلات
الجزئية في أحيان كثيرة .. والانتقال الكامل من نظام حياة
الى نظام آخر أعلى منه واكمل وأنظف ، انتقال له ما يبرره في
منطق النفس .. ولكن ما الذي يبرر الانتقال من نظام
الجاهلية الى نظام الاسلام ، اذا كان النظام الاسلامي لا يزيد
الا تغييرا طفيفا هنا ، وتعديلا طفيفا هناك ؟ ان البقاء على
النظام المألوف أقرب الى المنطق . لانه على الاقل نظام قائم ،
قابل للاصلاح والتعديل ، فلا ضرورة لطرحه ، والانتقال الى

نظام غير قائم ولا مطبق ، ما دام أنه شبيه به في معظم خصائصه !

كذلك نجد بعض الذين يتحدثون عن الاسلام يقدمونه للناس كأنه متهم يحاولون هم دفع التهمة عنه ! ومن بين ما يدفعون به أن الانظمة الحاضرة تفعل كذا وكذا مما تعيب على الاسلام مثله ، وأن الاسلام لم يصنع شيئاً - في هذه الامور - الا ما تصنعه « الحضارات » الحديثة بعد ألف وأربعمئة عام !

وهان ذلك دفاعا ! وساء ذلك دفاعا !

ان الاسلام لا يتخذ المبررات له من النظم الجاهلية والتصرفات النكدة التي تنبعث منها . وهذه « الحضارات » التي تبهر الكثيرين وتهزم ارواحهم ليست سوى نظم جاهلية في صميمها . وهي نظم معيبة مهلهلة هابطة حين تقاس الى الاسلام . . ولا عبرة بأن حال أهلها بخير من حال السكان في ما يسمى الوطن الاسلامي أو « العالم الاسلامي » ! فهؤلاء صاروا الى هذا البؤس بتركهم للاسلام لا لانهم مسلمون . . وحجة الاسلام التي يدلي بها للناس : أنه خير منها بما لا يقاس ، وانه جاء ليغيرها لا ليقرها ، ويرفع البشرية عن هذتها لا ليبارك تمرغها في هذا الوحل الذي يبدو في ثوب « الحضارة » . .

فلا تبلغ بنا الهزيمة ان نتلمس للاسلام مشابهاً في بعض الانظمة القائمة ، وفي بعض المذاهب القائمة ، وفي بعض الافكار القائمة . فنحن نرفض هذه الانظمة في الشرق أو في الغرب سواء . . اننا نرفضها كلها لانها منحطة ومتخلفة بالقياس الى ما يريد الاسلام أن يبلغ بالبشرية اليه .

وحين نخاطب الناس بهذه الحقيقة ، ونقدم لهم القاعدة العقيدية للتصور الاسلامي الشامل ، يكون لديهم في أعماق فطرتهم ما يبرر الانتقال من تصور الى تصور ، ومن وضع الى وضع . ولكننا لا نخاطبهم بحجة مقنعة حين نقول لهم : تعالوا من نظام قائم فعلا الى نظام آخر غير مطبق ، لا يغير في نظامكم القائم الا قليلا . وحجته اليكم انكم تفعلون فسي هذا الامر وذاك مثلما يفعل هو ، ولا يكلفكم الا تغيير القليل من عاداتكم وأوضاعكم وشهواتكم ، وسيبقى لكم كل ما تحرصون عليها منها ولا يمسه مسا خفيفا !!

هذا الذي يبدو سهلا في ظاهره ، ليس مغريا في طبيعته ، فضلا على انه ليس هو الحقيقة . . فالحقيقة ان الاسلام يبدل التصورات والمشاعر ، كما يبدل النظم والاضاع ، كما يبدل الشرائع والقوانين تبديلا اساسيا لا يمت بصلة الى قاعدة الحياة الجاهلية ، التي تحياها البشرية . . ويكفي انه ينقلهم جملة وتفصيلا من عبادة العباد الى عبادة الله وحده . .

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . .

« ومن كفر فان الله غني عن العالمين » . .

والمسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام . وهذا ما ينبغي ان يكون واضحا . . ان الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - وهم يحيون حياة الجاهلية . واذا كان فيهم من يحب ان يخدع نفسه أو يخدع الآخرين ، فيعتقد أن الاسلام يمكن ان يستقيم مع هذه الجاهلية فله ذلك . ولكن انخداعه أو خداعه لا يغير من حقيقة الواقع شيئا . . ليس هذا اسلاما ، وليس هؤلاء مسلمين . والدعوة اليوم انما تقوم لترد هؤلاء الجاهلين الى الاسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد .

ونحن لا ندعو الناس الى الاسلام لننال منهم اجرا .
 ولا نريد علوا في الارض ولا فسادا . ولا نريد شيئا خاصا
 لانفسنا اطلاقا ، وحسابنا واجرنا ليس على الناس . انما
 نحن ندعو الناس الى الاسلام لاننا نحبهم ونريد لهم الخير .
 مهما آذونا . لان هذه هي طبيعة الداعية الى الاسلام ،
 وهذه هي دوافعه . ومن ثم يجب ان يعلموا منا حقيقة
 الاسلام ، وحقيقة التكاليف التي سيطلبها اليهم ، في مقابل
 الخير العميق الذي يحمله لهم . كما يجب ان يعرفوا رأينا
 في حقيقة ما هم عليه من الجاهلية . انها الجاهلية وليست
 في شيء من الاسلام . انها « الهوى » ما دام أنها ليست هي
 « الشريعة » . انها « الضلال » ما دام أنها ليست هي الحق
 . فماذا بعد الحق الا الضلال !



وليس في اسلامنا ما نخجل منه ، وما نضطر للدفاع
 عنه ، وليس فيه ما نتدسس به للناس تدسسا ، أو ما
 نتلعثم في الجهر به على حقيقته . ان الهزيمة الروحية امام
 الغرب وامام الشرق وامام أوضاع الجاهلية هنا وهناك هي
 التي تجعل بعض الناس . . « المسلمين » . يتلمس للاسلام
 موافقات جزئية من النظم البشرية ، أو يتلمس من أعمال
 « الحضارة » الجاهلية ما يسند به أعمال الاسلام وقضاه
 في بعض الامور . .

انه اذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار
 فليس هو الذي يقدم الاسلام للناس . وانما هو ذاك الذي
 يحيا في هذه الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائص
 والعيوب ، ويريد ان يتلمس المبررات للجاهلية . وهؤلاء هم
 الذين يهاجمون الاسلام ويلجئون بعض محبيه الذين يجهلون

حقيقته الى الدفاع عنه ، كأنه متهم مضطر للدفاع عن نفسه
في قفص الاتهام !

بعض هؤلاء كانوا يواجهوننا - نحن القلائل المنتسبين
الى الاسلام - في امريكا في السنوات التي قضيتها هناك -
وكان بعضنا يتخذ موقف الدفاع والتبرير .. وكنت على
العكس اتخذ موقف المهاجم للجاهلية الغربية .. سواء في
معتقداتها الدينية المهلهلة . أو في أوضاعها الاجتماعية
والاقتصادية والاخلاقية المؤذية .. هذه التصورات عن
الاقانيم وعن الخطيئة وعن الفداء ، وهي لا تستقيم في عقل
ولا ضمير .. وهذه الرأسمالية باحتكارها ورباها وما فيها
من بشاعة كالحة .. وهذه الفردية الاثرة التي ينعدم معها
التكافل الا تحت مطارق القانون .. وهذا التصور المادي
التافه الجاف للحياة .. وحرية البهائم التي يسمونها « حرية
الاختلاط » .. وسوق الرقيق التي يسمونها « حرية
المرأة » .. والسخف والخرج والتكلف المضاد لواقع الحياة
في نظم الزواج والطلاق ، والتفريق العنصري الحاد الخبيث
.. ثم .. ما في الاسلام من منطق وسمو وانسانية وبشاشة ،
وتطلع الى آفاق تطلع البشرية دونها ولا تبلغها . ومن
مواجهة الواقع في الوقت ذاته ومعالجته معالجة تقوم على
قواعد الفطرة الانسانية السليمة .

وكانت هذه حقائق نواجهها في واقع الحياة الغربية ..
وهي حقائق كانت تخجل اصحابها حين تعرض في ضوء
الاسلام .. ولكن ناسا - يدعون الاسلام - ينهزمون امام
ذلك النتن الذي تعيش فيه الجاهلية ، حتى ليتلمسون
للاسلام مشابهاً في هذا الركاب المضطرب البائس في
الغرب . وفي تلك الشناعة المادية البشعة في الشرق أيضاً !

ولست في حاجة بعد هذا الى ان أقول : اننا نحن الذين نقدم الاسلام للناس ، ليس لنا ان نجاري الجاهلية في شيء من تصوراتها ، ولا في شيء من أوضاعها ، ولا في شيء من تقاليدها . مهما يشتد ضغطها علينا .

ان وظيفتنا الاولى هي احلال التصورات الاسلامية والتقاليد الاسلامية في مكان هذه الجاهلية . ولن يتحقق هذا بمجاعة الجاهلية والسير معها خطوات في اول الطريق ، كما قد يخيل الى البعض منا . ان هذا معناه اعلان الهزيمة منذ اول الطريق .

ان ضغط التصورات الاجتماعية السائدة ، والتقاليد الاجتماعية الشائعة ، ضغط ساحق عنيف ، وبخاصة في دنيا المرأة . والمرأة المسلمة تواجه في هذه الجاهلية ضغطا قاسيا مشروما حقا . ولكن لا بد مما ليس منه بد . لا بد ان نثبت اولا ، ولا بد ان نستعلي ثانيا ، ولا بد ان نري الجاهلية حقيقة الدرك الذي هي فيه بالقياس الى الآفاق العليا المشرقة للحياة الاسلامية التي نريدها .

ولن يكون هذا بأن نجاري الجاهلية في بعض الخطوات، كما أنه لن يكون بأن نقاطعها الان وننزوي عنها وننزل . . . كلا ، انما هي المخالطة مع التميز ، والاخذ والعطاء مع الترفع ، والصدع بالحق في مودة ، والاستعلاء بالايمان في تواضع . والامتلاء بعد هذا كله بالحقيقة الواقعة : وهي اننا نعيش في وسط جاهلية ، واننا اهدى طريقا من هذه الجاهلية ، وانها نقلة بعيدة واسعة ، هذه النقطة من الجاهلية الى الاسلام ، وانها هوة فاصلة لا يقام فوقها معبر للالتقاء في منتصف الطريق ، ولكن لينتقل عليه اهل الجاهلية الى الاسلام ، سواء كانوا ممن يعيشون فيما يسمى الوطن الاسلامي ، ويزعمون أنهم مسلمون ، أو كانوا يعيشون في غير

الوطن « الاسلامي » ، وليخرجوا من الظلمات الى النور ،
ولينجوا من هذه الشقوة التي هم فيها ، وينعموا بالخير
الذي ذقناه نحن الذين عرفنا الاسلام وحاولنا ان نعيش به
.. والا فلنقل ما أمر الله سبحانه رسول صلى الله عليه
وسلم ان يقوله :

« لكم دينكم ولي دين » ... (الكافرون : ٦)



استِعلاءُ الإيمان

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » .. (آل عمران : ١٣٩)

اول ما يتبادر الى الذهن من هذا التوجيه أنه ينصب على حالة الجهاد الممثلة في القتال .. ولكن حقيقة هذا التوجيه ومداه أكبر وأبعد من هذه الحالة المفردة ، بكل ملابساتها الكثيرة .

انه يمثل الحالة الدائمة التي ينبغي ان يكون عليها شعور المؤمن وتصوره وتقديره للأشياء والاحداث والقيم والاشخاص سواء .

انه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب ان تستقر عليها نفس المؤمن ازاء كل شيء ، وكل وضع ، وكل قيمة ، وكل أحد ، الاستعلاء بالايمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الايمان .

الاستعلاء على قوى الارض الحائدة عن منهج الايمان . وعلى قيم الارض التي لم تنبثق من أصل الايمان . وعلى تقاليد الارض التي لم يصغها الايمان ، وعلى قوانين الارض التي لم يشرعها الايمان ، وعلى أوضاع الارض التي لم ينشئها الايمان .

الاستعلاء .. مع ضعف القوة ، وقلّة العدد ، وفقر المال ، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء .

الاستعلاء الذي لا يتهاوى امام قوة باغية ، ولا عرف
اجتماعي ولا تشريع باطل ، ولا وضع مقبول عند الناس ولا
سند له من الايمان .

وليست حالة التماسك والثبات في الجهاد الا حالة
واحدة من حالات الاستعلاء التي يشملها هذا التوجيه الالهي
العظيم .



والاستعلاء بالايمان ليس مجرد عزمة مفردة ، ولا نخوة
دافعة ، ولا حماسة فائرة ، انما هو الاستعلاء القائم على
الحق الثابت المركز في طبيعة الوجود . الحق الباقي وراء
منطق القوة ، وتصور البيئة ، واصطلاح المجتمع ، وتعارف
الناس ، لانه موصول بالله الحي الذي لا يموت .

ان للمجتمع منطق السائد وعرفه العام وضغطه
الساحق ووزنه الثقيل . . على من ليس يحتمي منه بركن
ركن ، وعلى من يواجهه بلا سند متين . . وللتصورات
السائدة والافكار الشائعة ايحاؤها الذي يصعب التخلص
منه بغير الاستقرار على حقيقة تصغر في ظلها تلك التصورات
والافكار ، والاستمداد من مصدر أعلى من مصدرها واكبر
واقوى .

والذي يقف في وجه المجتمع ، ومنطقه السائد ، وعرفه
العام ، وقيمه واعتباراته ، وافكاره وتصوراته ، وانحرافاته
ونزواته . . يشعر بالغربة كما يشعر بالوهن ، ما لم يكن
يستند الى سند أقوى من الناس ، وأثبت من الارض ،
وأكرم من الحياة .

والله لا يترك المؤمن وحيدا يواجه الضغط ، وينسوء به

الثقل ، ويهدء الوهن والحزن ، ومن ثم يجيء هذا التوجيه :
« ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين » .
(آل عمران : ١٣٩)

يجيء هذا التوجيه ليواجه الوهن كما يواجه الحزن ،
هما الشعوران المباشران للذات يساوران النفس في هذا
المقام . . يواجههما بالاستعلاء لا بمجرد الصبر والثبات ،
الاستعلاء الذي ينظر من عل الى القوى الطاغية ، والقيم
السائدة ، والتصورات الشائعة ، والاعتبارات والاوزاع
والتقاليد والعادات ، والجماهير المتجمعة على الضلال .

ان المؤمن هو الاعلى . . الاعلى سنداً ومصدراً . . فما
تكون الارض كلها ؟ وما يكون الناس ؟ وما تكون القيم
السائدة في الارض ؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس ؟ وهو
من الله يتلقى ، والى الله يرجع ، وعلى منهجه يسير ؟

وهو الاعلى ادراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود . . فالإيمان
بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الاسلام هو اكمل
صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى . . حين تقاس هذه الصورة
الى ذلك الركाम من التصورات والعقائد والمذاهب ، سواء
ما جاءت به الفلسفات الكبرى قديماً وحديثاً ، وما انتهت
اليه العقائد الوثنية والكتابية المحرفة ، وما اعتسفته المذاهب
المادية الكالحة . . حين تقاس هذه الصورة المشرقة الواضحة
الجميلة المتناسقة ، الى ذلك الركام وهذه التعسفات ،
تتجلى عظمة العقيدة الاسلامية كما لم تتجل قط . وما من
شك ان الذين يعرفون هذه المعرفة هم الاعلون على كل من
هناك (١) .

(١) يراجع فصل « تيه وركام » في كتاب : خصائص التصور الاسلامي

ومقوماته .

وهو الاعلى تصورا للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والاحداث والاشياء والاشخاص . فالعقيدة المنبثقة من المعرفة بالله ، بصفاته كما جاء بها الاسلام ، ومن المعرفة بحقائق القيم في الوجود الكبير لا في ميدان الارض الصغير . هذه العقيدة من شأنها ان تمنح المؤمن تصورا للقيم أعلى وأضبط من تلك الموازين المختلفة في أيدي البشر ، الذين لا يدركون الا ما تحت اقدامهم . ولا يثبتون على ميزان واحد في الجيل الواحد . بل في الامة الواحدة . بل في النفس الواحدة من حين الى حين .

وهو الاعلى ضميرا وشعورا ، وخلقاً وسلوكاً . فان عقيدته في الله ذي الاسماء الحسنى والصفات المثلى ، هي بذاتها موحية بالرفعة والنظافة والطهارة والعفة والتقوى ، والعمل الصالح والخلافة الراشدة . فضلا على احياء العقيدة عن الجزاء في الآخرة . الجزاء الذي تهون امامه متاعب الدنيا وآلامها جميعا . ويطمئن اليه ضمير المؤمن ، ولو خرج من الحياة الدنيا بغير نصيب .

وهو الاعلى شريعة ونظاما . وحين يراجع المؤمن كل ما عرفته البشرية قديما وحديثا ، ويقيسه الى شريعته ونظامه ، فسيراه كله أشبه شيء بمحاولات الاطفال وخبط العميان ، الى جانب الشريعة الناضجة والنظام الكامل . وسينظر الى البشرية الضالة من عل في عطف واشفاق على بؤسها وشقوتها ، ولا يجد في نفسه الا الاستعلاء على الشقوة والضلal .

وهكذا كان المسلمون الاوائل يقفون امام المظاهر الجوفاء ، والقوى المتنفجة ، والاعتبارات التي كانت تتعبد

الناس في الجاهلية .. والجاهلية ليست فترة من الزمان ،
انما هي حالة من الحالات تتكرر كلما انحرف المجتمع عن
نهج الاسلام ، في الماضي والحاضر والمستقبل على السواء ..
هكذا وقف المغيرة ابن شعبة امام صور الجاهلية
واوضاعها وقيمها وتصوراتها في معسكر رستم قائد الفرس
المشهور :

« عن ابي عثمان النهدي قال : لما جاء المغيرة الى
القنطرة ، فعبرها الى اهل فارس اجلسوه ، واستأذنوا
رستم في اجازته ، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية
لتهاونهم ، فأقبل المغيرة ابن شعبة والقوم في زيهم ، عليهم
التيجان والثياب المنسوجة بالذهب ، وبسطهم على غلوة
(والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة أو اربعمائة
خطوة) لا يصل الى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة ، واقبل
المغيرة وله اربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره
ووسادته ، فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه (١) ، فقال :
كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا أرى قوما أسفه منكم .
انا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا ، الا ان يكون
محاربا لصاحبه ، فظننت انكم تواسون قومكم كما نتواسي ،
وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني ان بعضكم ارباب
بعض ، وان هذا الامر لا يستقيم فيكم ، فلا نصنعه ، ولم
آتكم ولكن دعوتهموني . اليوم علمت ان امركم مضمحل ،
وانكم مغلوبون ، وأن ملكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على
هذه العقول ، » .

كذلك وقف ربيعي بن عامر مع رستم هذا وحاشيته
قبل وقعة القادسية :

(١) مغثوه : صرعوه .

« أرسل سعد بن أبي وقاص قبل القادسية ربعي بن عامر رسولا الى رستم ، قائد الجيوش الفارسية واميرهم ، فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق والزرابي الحرير (١)، وأظهر اليواقيت والآلء الثمينة العظيمة ، وعليه تاجه ، وغير ذلك من الامتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب . ودخل ربعي بثياب صفيقة وترس وفرس قصيرة . ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ثم نزل وربطها ببعض تلك الوسائد . وأقبل وعليه سلاحه وبيضته على رأسه . فقالوا له : ضع سلاحك فقال : اني لم آتكم ، وانما جئتكم حين دعوتموني ، فان تركتموني هكذا والا رجعت . فقال رستم : أئذنوا له . فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق لخرق عامتها . فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام .



وتتبدل الاحوال ويقف المسلم موقف المغلوب المجرد من القوة المادية ، فلا يفارقه شعوره بأنه الاعلى . وينظر الى غالبه من عل ما دام مؤمنا . ويستيقن انها فترة وتمضي ، وان للايمان كرة لا مفر منها . وهبها كانت القاضية فانه لا يحني لها رأسا . ان الناس كلهم يموتون اما هو فيستشهد . وهو يغادر هذه الارض الى الجنة ، وغالبه يغادرها الى النار . وشتان شتان . وهو يسمع نداء ربه الكريم :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل

(١) النمارق : الوسائد والحشايا للاتكاء . والزرابي : البسط المخملة .

ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد . لكن الذين اتقوا ربهم لهم
جنات تجري من تحتها الانهار خالدون فيها . نزلا من عند
الله وما عند الله خير للابرار ، . . . (آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨)

وتسود المجتمع عقائد وتصورات وقيم وأوضاع كلها
مغاير لعقيدته وتصوره وقيمه وموازينه ، فلا يفارقه شعوره
بأنه الاعلى ، وبأن هؤلاء كلهم في الموقف الدون . وينظر اليهم
من عل في كرامة واعتزاز ، وفي رحمة كذلك وعطف ، ورغبة
في هدايتهم الى الخير الذي معه ، ورفعهم الى الافق الذي
يعيش فيه .

ويضج الباطل ويصخب ، ويرفع صوته وينفش ريشه ،
وتحيط به الهالات المصطنعة التي تغشي على الابصار
والبصائر ، فلا ترى ما وراء الهالات من قبح شائه دميم ،
وفجر كالح لثيم . . . وينظر المؤمن من عل الى الباطل
المنتفش ، والى الجموع المخدوعة ، فلا يهن ولا يحزن ، ولا
ينقص اصراره على الحق الذي معه ، وثباته على النهج الذي
يتبعه ، ولا تضعف رغبته كذلك في هداية الضالين
والمخدوعين .

ويفرق المجتمع في شهواته الهابطة ، ويمضي مع نزواته
الخليعة ، ويلصق بالوحل والطين ، حاسبا انه يستمتع
وينطلق من الاغلال والقيود . وتعز في مثل هذا المجتمع كل
متعة بريئة وكل طيبة حلال ، ولا يبقى الا المشرع الآسن ،
والا الوحل والطين . . . وينظر المؤمن من عل الى الغارقين
في الوحل اللاصقين بالطين . وهو مفرد وحيد ، فلا يهن ولا
يحزن ، ولا تراوده نفسه ان يخلع رداءه النظيف الطاهر ،
وينغمس في الحمأة ، وهو الاعلى بمتعة الايمان ولذة اليقين .

ويقف المؤمن قابضا على دينه كالقابض على الجمر في
المجتمع الشارد عن الدين ، وعن الفضيلة ، وعن القيم العليا ،

وعن الاهتمامات النبيلة ، وعن كل ما هو طاهر نظيف جميل
.. ويقف الآخرون هازئين بوقفته ، ساخرين من تصوراته ،
ضاحكين من قيمه .. فما يهن المؤمن وهو ينظر من عل الى
الساخرين والهازئين والضاחקين ، وهو يقول كما قال واحد
من الرهط الكرام الذين سبقوه في موكب الايمان العريق
الوضي ، في الطريق اللاحب الطويل .. نوح عليه السلام ..
« ان تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون » ...
(هود : ٢٨)

وهو يرى نهاية الموكب الوضي ، ونهاية القافلة البائسة
في قوله تعالى :

« ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ..
واذا مروا بهم يتغامزون . واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا
فكهن . واذا رأوهم قالوا : ان هؤلاء لضالون - وما أرسلوا
عليهم حافظين - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون .
على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ! » ...
(المطففين : ٢٩ - ٣٦)

وقديما قص علينا القرآن الكريم قولة الكافرين
للمؤمنين :

« واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين
آمنوا : أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ؟ » ..
(مريم : ٧٣)

اي الفريقين ؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ؟ أم
الفقراء الذين يلتفون حوله ؟ اي الفريقين ؟ النضر بن
الحارث ، وعمرو بن هشام ، والوليد بن المغيرة ، وأبو سفيان
ابن حرب ؟ أم بلال وعمار وصهيب وخباب ؟ أفلو كان ما

يدعو اليه محمد خيرا أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر ،
الذين لا سلطان لهم في قریش ولا خطر ، وهم يجتمعون في
بيت متواضع كدار الارقم ، ويكون معارضوه هم أولئك
أصحاب الندوة الفخمة الضخمة ، والمجد والجاه والسلطان ؟!
انه منطق الارض ، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا
في كل زمان ومكان • وانها لحكمة الله ان تقف العقيدة
مجردة من الزينة والطلاء عاطلة من عوامل الاغراء ، لا قربى
من حاكم ، ولا اعتزاز بسلطان ، ولا هتاف بلذة ، ولا دغدغة
لغريزة • وانما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد ••
ليقبل عليها من يقبل ، وهو على يقين من نفسه انه يريد لها
لذاتها خالصة لله من دون الناس ، ومن دون ما تواضعوا
عليه من قيم ومغريات ، ولينصرف عنها من يبتغي المطامع
والمنافع ، ومن يشتهي الزينة والابهة ، ومن يطلب المال
والمتاع ، ومن يقيم لاعتبارات الناس وزنا حين تخف في
ميزان الله •

ان المؤمن لا يستمد قيمه وتصوراتہ وموازينہ من
الناس حتى يأسى على تقدير الناس ، انما يستمدھا من
رب الناس وهو حسبہ وكافيہ •• انه لا يستمدھا من
شعوات الخلق حتى يتأرجح مع شعوات الخلق ، انما
يستمدھا من ميزان الحق الثابت الذي لا يتأرجح ولا يميل
•• انه لا يتلقاها من هذا العالم الفاني المحدود ، انما تنبثق
في ضميره من ينابيع الوجود •• فأنتى يجد في نفسه وهنا
أو يجد في قلبه حزنا ، وهو موصول برب الناس وميزان
الحق وينابيع الوجود ؟

انه على الحق •• فماذا بعد الحق الا الضلال ؟ وليكن
للضلال سلطانہ ، وليكن له هيله وهيلمانہ ، ولتكن معه
جموعه وجماهيره •• ان هذا لا يغير من الحق شيئا ، انه

على الحق وليس بعد الحق الا الضلال ، ولن يختار مؤمن
الضلال على الحق - وهو مؤمن - ولن يعدل بالحق الضلال
كأئنة ما كانت الملابس والاحوال ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك
رحمة انك أنت الوهاب . ربنا انك جامع الناس ليوم لا ريب
فيه ان الله لا يخلف الميعاد » .

(آل عمران : ٨ - ٩)



هَذَا هُوَ الطَّرِيقُ

« والسماء ذات البروج • واليوم الموعود • وشاهد ومشهود • قتل أصحاب الأخدود • النار ذات الوقود • اذ هم عليها قعود • وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود • وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد • الذي له ملك السماوات والارض والله على كل شيء شهيد • ان الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق • ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الانهار ذلك الفوز الكبير • ان بطش ربك لشديد • انه هو يبدى ويعيد • وهو الغفور الودود • ذو العرش المجيد • فعال لما يريد • »

ان قصة أصحاب الأخدود - كما وردت في سورة البروج - حقيقة بأن يتأملها المؤمنون الداعون الى الله في كل ارض وفي كل جيل • فالقرآن بايرادها في هذا الاسلوب مع مقدمتها والتعقيبات عليها ، والتقريرات والتوجيهات المصاحبة لها •• كان يخط بها خطوطا عميقة في تصور طبيعة الدعوة الى الله ، ودور البشر فيها ، واحتمالاتها المتوقعة في مجالها الواسع - وهو أوسع رقعة من الارض ، وأبعد مدى من الحياة الدنيا - وكان يرسم للمؤمنين معالم الطريق ، ويعدّ نفوسهم لتلقي اي من هذه الاحتمالات التي يجري بها القدر المرسوم ، وفق الحكمة المكنونة في غيب الله المستور •

انها قصة فئة آمنت بربها ، واستعلنت حقيقة ايمانها • ثم تعرضت للفتنة من أعداء جبارين بطاشيين مستهترين

بحق « الانسان » في حرية الاعتقاد بالحق والايمان بالله
العزیز الحمید ، وبكرامة الانسان عند الله عن أن يكون لعبة
يتسلى الطغاة بآلام تعذيبها ، ويتلهون بمنظرها في أثناء
التعذيب بالحريق !

وقد ارتفع الايمان بهذه القلوب على الفتنة ، وانتصرت
فيها العقيدة على الحياة ، فلم ترضخ لتهديد الجبارين
الطغاة ، ولم تفتن عن دينها ، وهي تحرق بالنار حتى تموت .

لقد تحررت هذه القلوب من عبوديتها للحياة ، فلم
يستذلها حب البقاء وهي تعان الموت بهذه الطريقة البشعة ،
وانطلقت من قيود الارض وجواذبها جميعا ، وارتفعت على
ذواتها بانتصار العقيدة على الحياة فيها .

وفي مقابل هذه القلوب المؤمنة الخيرة الرفيعة الكريمة
كانت هناك جبال جاحدة شريرة مجرمة لثيمة . وجلس
أصحاب هذه الجبال على النار . يشهدون كيف يتعذب
المؤمنون ويتألمون . جلسوا يتلهون بمنظر الحياة تأكلها النار ،
والاناسي الكرام يتحولون وقودا وترابا . وكلما ألقى فتى أو
فتاة ، صبية أو عجوز ، طفل أو شيخ ، من المؤمنين الخيرين
الكرام في النار ، ارتفعت النشوة الخسيسة في نفوس الطغاة ،
وعربد السعار المجنون بالدماء والاشلاء !

هذا هو الحادث البشع الذي انتكست فيه جبال
الطغاة وارتكست في هذه الحماة ، فراحت تلتذ مشهد
التعذيب المروع العنيف ، بهذه الخساسة التي لم يرتكس
فيها وحش قط ، فالوحش يفترس ليققات ، لا ليلتذ آلام
الفريسة في لؤم وخسة !

وهو ذاته الحادث الذي ارتفعت فيه أرواح المؤمنين
وتحررت وانطلقت الى ذلك الاوج السامي الرفيع ، السني

تشرف به البشرية في جميع الاجيال والعصور .

في حساب الارض يبدو ان الطغيان قد انتصر على الايمان . وان هذا الايمان الذي بلغ تلك الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية . . لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الايمان والطغيان !

ولا تذكر الروايات التي وردت في هذا الحادث ، كما لا تذكر النصوص القرآنية ، أن الله قد أخذ أولئك الطغاة في الارض بجريمتهم البشعة ، كما أخذ قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وقوم لوط . او كما أخذ فرعون وجنوده أخذ عزيز مقتدر .

ففي حساب الارض تبدو هذه الخاتمة اسيفة اليمة !
أفهلكذا ينتهي الامر ، وتذهب الفئة المؤمنة التي ارتفعت الى ذروة الايمان ؟ تذهب مع آلامها الفاجعة في الاخدود ؟ بينما تذهب الفئة الباغية ، التي ارتكست الى هذه الحمأة ، ناجية ؟

حساب الارض يحيك في الصدر شيء امام هذه الخاتمة الاسيفة !

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة اخرى ، ويبصرهم بطبيعة القيم التي يزنون بها ، وبمجال المعركة التي يخوضونها .

ان الحياة وسائر ما يلبسها من لذائذ وآلام ، ومن متاع وحرمان . . ليست هي القيمة الكبرى في الميزان . . وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة . والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة . فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

ان القيمة الكبرى في ميزان الله هي قيمة العقيدة ،
وان السلعة الرائجة في سوق الله هي سلعة الايمان . وان
النصر في ارفع صورته هو انتصار الروح على المادة ، وانتصار
العقيدة على الالم ، وانتصار الايمان على الفتنة . وفي هذا
الحادث انتصرت ارواح المؤمنين على الخوف والالام ،
وانتصرت على جواذب الارض والحياة ، وانتصرت على
الفتنة انتصارا يشرف الجنس البشري كله في جميع الاعصار
. . وهذا هو الانتصار . .

ان الناس جميعا يموتون ، وتختلف الاسباب . ولكن
الناس جميعا لا ينتصرون هذا الانتصار ، ولا يرتفعون هذا
الارتفاع ، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا
الانطلاق الى هذه الآفاق . . انما هو اختيار الله وتكريمه
لفئة كريمة من عباده لتشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون
الناس في المجد ، المجد في الملاء الاعلى ، وفي دنيا الناس ايضا ،
اذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الاجيال بعد الاجيال !

لقد كان في استطاعة المؤمنين ان ينجسوا بحياتهم في
مقابل الهزيمة لايمانهم . ولكن كم كانوا يخسرون هم
أنفسهم ؟ وكم كانت البشرية كلها تخسر ؟ كم كانوا يخسرون
وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ،
وبشاعتها بلا حرية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على
الارواح بعد سيطرتهم على الاجساد ؟

انه معنى كريم جدا ، ومعنى كبير جدا ، هذا الذي
ربحوه وهم بعد في الارض ، ربحوه وهم يجدون مس النار ،
فتحترق اجسادهم الفانية ، وينتصر هذا المعنى الكريم الذي
تزكيه النار !

ثم ان مجال المعركة ليس هو الارض وحدها ، وليس
هو الحياة الدنيا وحدها . وشهود المعركة ليسوا هم الناس

في جيل من الاجيال • ان الملا الاعلى يشارك في احداث الارض ويشهدها ويشهد عليها ، ويزنها بميزان غير ميزان الارض في جيل من اجيالها ، وغير ميزان الارض في اجيالها جميعا • والملا الاعلى يضم من الارواح الكريمة اضعاف اضعاف ما تضم الارض من الناس •• وما من شك ان ثناء الملا الاعلى وتكريمه اكبر وأرجح في أي ميزان من رأي أهل الارض وتقديرهم على الاطلاق !

وبعد ذلك كله هناك الآخرة • وهي المجال الاصيل الذي يلحق به مجال الارض ، ولا ينفصل عنه ، لا في الحقيقة الواقعة ، ولا في حس المؤمن بهذه الحقيقة •
فالمعركة اذن لم تنته ، وخاتمتها الحقيقية لم تجيء بعد ، والحكم عليها بالجزء الذي عرض منها على الارض حكم غير صحيح ، لانه حكم على الشطر الصغير منها والشطر الزهيد •



النظرة الاولى هي النظرة القصيرة المدى الضيقة المجال التي تعنّ للانسان العجول • والنظرة الثانية الشاملة البعيدة المدى هي التي يروض القرآن المؤمنين عليها ، لانها تمثل الحقيقة التي يقوم عليها التصور الايماني الصحيح •
ومن ثم كان وعد الله للمؤمنين جزاء على الايمان والطاعة ، والصبر على الابتلاء ، والانتصار على فتن الحياة •• هو طمأنينة القلب :

« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله • الا بذكر الله تطمئن القلوب » •••

(الرعد : ٢٨)

وهو الرضوان والود من الرحمن :

« ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم
الرحمن ودا »
(مريم : ٩٦) •

وهو الذكر في الملائكة الاعلى :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - اذا مات ولد
العبد قال الله للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم •
فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم فيقول : ماذا قال
عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع • فيقول : ابنوا لعبدي
بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد ، ••• (أخرجه الترمذي)

وقال صلى الله عليه وسلم : يقول الله عز وجل : أنا
عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني • فاذا ذكرني في
نفسه ذكرته في نفسي ، وان ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير
منه • فان اقترب الي شبرا اقتربت اليه ذراعا ، وان اقترب
الي ذراعا اقتربت منه باعا ، وان أتاني مشيا أتيت هرولة ،
(أخرجه الشيخان)

وهو اشتغال الملائكة الاعلى بأمر المؤمنين في الارض :

« الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد
ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا • ربنا وسعت
كل شيء رحمة وعلما • فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ،
وقهم عذاب الجحيم ••• »
(غافر : ٧)

وهو الحياة عند الله للشهداء :

« ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا ، بل
أحياء عند ربهم يرزقون • فرحين بما آتاهم الله من فضله ،
ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف
عليهم ولا هم يحزنون • يستبشرون بنعمة من الله وفضل

وان الله لا يضيع أجر المؤمنين . . ، (آل عمران : ١٦٩ - ١٧١) .

كما كان وعده المتكرر بأخذ المكذبين والطغاة والمجرمين في الآخرة والاملاء لهم في الارض والامهال السي حين . . وان كان أحيانا قد أخذ بعضهم في الدنيا . . ولكن التركيز كله على الآخرة في الجزء الاخير :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » . . (آل عمران : ١٩٦ - ١٩٧)

« ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون . إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار ، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد اليهم طرفهم وافئدتهم هواء » . . (ابراهيم : ٤٢ - ٤٣)
« فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون . يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون . خاشعة ابصارهم ترهقهم ذلة . ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون . . » (المعارج : ٤٢ - ٤٤)

وهكذا اتصلت حياة الناس بحياة الملأ الاعلى ، واتصلت الدنيا بالآخرة ، ولم تعد الارض وحدها هي مجال المعركة بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والايمان والطغيان . ولم تعد الحياة الدنيا هي خاتمة المطاف ، ولا موعد الفصل في هذا الصراع . . كما أن الحياة وكل ما يتعلق بها من لذائد وآلام ومتاع وحرمان ، لم تعد هي القيمة العليا في الميزان .
انفسح المجال في المكان ، وانفسح المجال في الزمان ، وانفسح المجال في القيم والموازين ، واتسعت آفاق النفس المؤمنة ، وكبرت اهتماماتها ، فصغرت الارض وما عليها ، والحياة الدنيا وما يتعلق بها ، وكبر المؤمن بمقدار ما رأى وما عرف من الآفاق والحيوات ، وكانت قصة أصحاب

الاخدود في القمة في انشاء هذا التصور الايماني الواسع
الشامل الكبير الكريم .

هنالك اشعاع آخر تطلقه قصة اصحاب الاخدود
وسورة البروج ، حول طبيعة الدعوة الى الله ، وموقف
الداعية امام كل احتمال .

لقد شهدت تاريخ الدعوة الى الله نماذج متنوعة من نهايات
في الارض مختلفة للدعوات . .

شهد مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم شعيب ،
وقوم لوط ، ونجاة الفئة المؤمنة القليلة العدد ، مجرد النجاة .
ولم يذكر القرآن للناجين دورا بعد ذلك في الارض والحياة .
وهذه النماذج تقرر أن الله سبحانه وتعالى يريد أحيانا أن
يعجل للمكذبين الطغاة بقسط من العذاب في الدنيا ، أما
الجزاء الاوفى فهو مرصود لهم هناك .

وشهد تاريخ الدعوة مصرع فرعون وجنوده ، ونجاة
موسى وقومه ، مع التمكين للقوم في الارض فترة كانوا فيها
أصلح ما كانوا في تاريخهم . وإن لم يرتقوا قط الى
الاستقامة الكاملة ، والى اقامة دين الله في الارض منهجا
للحياة شاملا . . وهذا نموذج غير النماذج الاولى .

وشهد تاريخ الدعوة كذلك مصرع المشركين الذين
استعصوا على الهدى والايمان بمحمد - صلى الله عليه
وسلم - وانتصار المؤمنين انتصارا كاملا ، مع انتصار
العقيدة في نفوسهم انتصارا عجيبا . وتم للمرة الوحيدة في
تاريخ البشرية أن أقيم منهج الله مهيمنا على الحياة في صورة
لم تعرفها البشرية قط ، من قبل ولا من بعد .

وشهد - كما رأينا - نموذج اصحاب الاخدود . .
وشهد نماذج أخرى أقل ظهورا في سجل التاريخ
الايماني في القديم والحديث . وما يزال يشهد نماذج تتراوح
بين هذه النهايات التي حفظها على مدار القرون .
ولم يكن بدء من النموذج الذي يمثله حادث الاخدود ،
الى جانب النماذج الاخرى . القريب منها والبعيد . .

لم يكن بدء من هذا النموذج الذي لا ينجو فيه المؤمنون ،
ولا يؤخذ فيه الكافرون ! ذلك ليستقر في حس المؤمنين -
اصحاب دعوة الله - أنهم قد يدعون الى نهاية كهذه النهاية
في طريقهم الى الله . وأن ليس لهم من الامر شيء ، انما
أمرهم وأمر العقيدة الى الله !

ان عليهم أن يؤدوا واجبهم ، ثم يذهبوا . وواجبهم ان
يختاروا الله ، وان يؤثروا العقيدة على الحياة ، وأن يستعلوا
بالايمان على الفتنة وأن يصدقوا الله في العمل والنية . ثم
يفعل الله بهم وباعدائهم ، كما يفعل بدعوته ودينه ما يشاء .
وينتهي بهم الى نهاية من تلك النهايات التي عرفها تاريخ
الايمان ، أو الى غيرها مما يعلمه هو ويراه .

انهم أجراء عند الله . أينما وحيثما وكيفما أرادهم ان
يعملوا ، عملوا وقبضوا الاجر المعلوم ! وليس لهم ولا عليهم
أن تتجه الدعوة الى أي مصير ، فذلك شأن صاحب الامر
لا شأن الاجير !

وهم يقبضون الدفعة الاولى طمأنينة في القلب ، ورفع
في الشعور ، وجمالا في التصور ، وانطلاقا من الاوهام
والجواذب ، وتحررا من الخوف والقلق ، في كل حال من
الاحوال .

وهم يقبضون الدفعة الثانية ثناء في الملأ الاعلى وذكر
وكرامة ، وهم بعد في هذه الارض الصغيرة .

ثم هم يقبضون الدفعة الكبرى في الآخرة حسابا يسيرا
ونعيما كبيرا .

ومع كل دفعة ما هو أكبر منها جميعا . رضوان الله ،
وأنهم مختارون ليكونوا أداة لقدره وستارا لقدرته ، يفعل بهم
في الارض ما يشاء .



وهكذا انتهت التربية القرآنية بالفئة المختارة من
المسلمين في الصدر الاول الى هذا التطور ، الذي أطلقهم من
أمر ذواتهم وشخصهم . فخرجوا انفسهم من الامر البتة ،
وعملوا اجراء عند صاحب الامر ورضوا خيرة الله على أي
وضع وعلى أي حال .

وكانت التربية النبوية تتمشى مع التوجيهات القرآنية ،
وتوجه القلوب والانظار الى الجنة ، والى الصبر على السدور
المختار حتى يأذن الله بما يشاء في الدنيا والآخرة سواء .

كان - صلى الله عليه وسلم - يرى عمارا وأمه وأباه -
رضي الله عنهم - يعذبون العذاب الشديد في مكة ، فما يزيد
على ان يقول : « صبرا آل ياسر . موعدكم الجنة » .

وعن خبّاب بن الارت - رضي الله عنه - قال : شكونا
الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده
في ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ أو تدعو لنا ؟ فقال :
« قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل
فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين .
ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه . ما يبعده

ذلك عن دينه • والله ليتمنن الله تعالى هذا الامر حتى يسير
الراكب من صنعاء الى حضرموت ، فلا يخاف الا الله ، والذئب
على غنمه ، ولكنكم تستعجلون ، •• (أخرجه البخاري)

ان لله حكمة وراء كل وضع ووراء كل حال ، ومدبر
هذا الكون كله ، المطلع على أوله وآخره ، المنسق لاحداثه
وروابطه • هو الذي يعرف الحكمة المكنونة في غيبه المستور ،
الحكمة التي تتفق مع مشيئته في خط السير الطويل •

وفي بعض الاحيان يكشف لنا - بعد اجيال وقرون -
عن حكمة حادث لم يكن معاصروه يدركون حكمته • ولعلمهم
كانوا يسألون لماذا ؟ لماذا يا رب يقع هذا ؟ وهذا السؤال
نفسه هو الجهل الذي يتوقاه المؤمن • لانه يعرف ابتداء ان
هناك حكمة وراء كل قدر ، ولان سعة المجال في تصوره ،
وبعد المدى في الزمان والمكان والقيم والموازن تغنيه عن التفكير
ابتداء في مثل هذا السؤال • فيسير مع دورة القدر في
استسلام واطمئنان ••

لقد كان القرآن ينشئ قلوبا يعدها لحمل الامانة ،
وهذه القلوب كان يجب ان تكون من الصلابة والقوة والتجرد
بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء ، وتحتمل كل شيء -
الى شيء في هذه الارض ، ولا تنظر الا الى الآخرة ، ولا ترجو
الا رضوان الله ، قلوبا مستعدة لقطع رحلة الارض كلها في
نصب وشقاء وحرمان وعذاب وتضحية حتى الموت • بلا
جزا في هذه الارض قريب ، ولو كان هذا الجزاء هو انتصار
الدعوة ، وغلبة الاسلام وظهور المسلمين ، بل لو كان هذا
الجزاء هو هلاك الظالمين بأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل
بالمكذبين الاولين !

حتى اذا وجدت هذه القلوب ، التي تعلم أن ليس أمامها في رحلة الارض الا ان تعطي بلا مقابل - اي مقابل - وأن تنتظر الآخرة وحدها موعدا للفصل بين الحق والباطل . حتى اذا وجدت هذه القلوب ، وعلم الله منها صدق نيّتها على ما بايعت وعاهدت ، آتاها النصر في الارض ، واثمنها عليه . لا لنفسها ، ولكن لتقوم بأمانة المنهج الالهي وهي أهل لاداء الامانة منذ كانت لم توعده بشيء من المغنم في الدنيا تتقاضاه ، ولم تتطلع الى شيء من المغنم في الارض تعطاء . وقد تجردت لله حقا يوم كانت لا تعلم لها جزاء الا رضاه .

وكل الآيات التي ذكر فيها النصر ، وذكر فيها المغنم ، وذكر فيها أخذ المشركين في الارض بأيدي المؤمنين نزلت في المدينة . . بعد ذلك . . وبعد ان اصبحت هذه الامور خارج برنامج المؤمن وانتظاره وتطلعه . وجاء النصر ذاته لان مشيئة الله اقتضت ان تكون لهذا المنهج واقعية في الحياة الانسانية ، تقرر في صورة عملية محددة تراها الاجيال . . فلم يكن جزاء على التعب والنصب والتضحية والآلام ، انما كان قدرا من قدر الله تكمن وراءه حكمة نحاول رؤيتها الان !

وهذه اللفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة الى الله ، في كل أرض وفي كل جيل . فهي كفيلة بأن تريحهم معالم الطريق واضحة بلا غبش ، وان تثبت خطى الذين يريدون ان يقطعوا الطريق الى نهايته ، كيفما كانت هذه النهاية . ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون . فلا يتلفتون في أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والاشلاء ، وبالعرق والدماء ، الى نصر أو غلبة ، أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الارض . . ولكن اذا كان الله يريد ان يصنع بهم شيئا من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريد الله . . لا جزاء على الآلام والتضحيات . . لا ، فالارض ليست دار جزاء . . وانما

تحقيقا لقدرة الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي ناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء . وحسبهم هذا الاختيار الكريم ، الذي تهون الى جانبه وتصغر هذه الحياة ، وكل ما يقع في رحلة الأرض من سراء أو ضراء .

هنالك حقيقة أخرى يشير اليها احد التعقيبات القرآنية على قصة الاخدود في قوله تعالى :

« وما نقوموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . .

حقيقة ينبغي ان يتأملها المؤمنون الداعون الى الله في كل أرض وفي كل جيل .

ان المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئا آخر على الاطلاق . وان خصومهم لا ينقمون منهم الا الايمان ، ولا يسخطون منهم الا العقيدة . .

انها ليست معركة سياسية ولا معركة اقتصادية ، ولا معركة عنصرية . . ولو كانت شيئا من هذا لسهل وقفها ، وسهل حل اشكالاتها . ولكنها في صميمها معركة عقيدة - اما كفر واما ايمان . . اما جاهلية واما اسلام !

ولقد كان كبار المشركين يعرضون على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد ، ان يدع معركة العقيدة وان يدهن في هذا الامر ! ولو اجابهم - حاشاه - الى شيء مما أرادوا ما بقيت بينهم وبينه معركة على الاطلاق !

انها قضية عقيدة ومعركة عقيدة . . وهذا ما يجب ان يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدوا لهم . فانه لا يعاديهم

لشيء الا لهذه العقيدة « الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد »
ويخلصوا له وحده الطاعة والخضوع !

وقد يحاول اعداء المؤمنين ان يرفعوا للمعركة راية غير
راية العقيدة ، راية اقتصادية أو سياسية أو عنصرية ، كي
يموِّهوا على المؤمنين حقيقة المعركة ، ويطفئوا في أرواحهم
شعلة العقيدة . فمن واجب المؤمنين الايخضعوا ، ومن
واجبهم أن يدركوا ان هذا تمويه لغرض مبيت . وان الذي
يغيّر راية المعركة انما يريد ان يخدعهم عن سلاح النصر
الحقيقي فيها ، النصر في أية صورة من الصور ، سواء جاء في
صورة الانطلاق الروحي كما وقع للمؤمنين في حادث الاخدود ،
او في صورة الهيمنة - الناشئة من الانطلاق الروحي - كما
حدث للجيل الاول من المسلمين .

ونحن نشهد نموذجاً من تمويه الراية في محاولة
الصليبية العالمية اليوم أن تخدعنا عن حقيقة المعركة ، وان
تزور التاريخ ، فتزعم لنا أن الحروب الصليبية كانت ستارا
للاستعمار . . . كلا . . . انما كان الاستعمار الذي جاء متأخرا
هو الستار للروح الصليبية التي لم تعد قادرة على السفور
كما كانت في القرون الوسطى ! والتسي تحطمت على صخرة
العقيدة بقيادة مسلمين من شتى العناصر ، وفيهم صلاح -
الدين الكردي ، وتوران شاه المملوكي ، العناصر التي نسيت
قوميتها وذكّرت عقيدتها فانتصرت تحت راية العقيدة !

« وما نقوموا منهم الا ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد » .

وصدق الله العظيم ، وكذب الموهون الخادعون !

الفهرس

الموضوع	الصفحة
معالم في الطريق	٣
جيل قرآني فريد	١٣
طبيعة المنهج القرآني	٢٠
نشأة المجتمع المسلم وخصائصه	٤٦
الجهاد في سبيل الله	٥٥
لا اله الا الله منهج حياة	٨٣
شريعة كونية	٩٧
الاسلام هو الحضارة	١٠٥
التصور الاسلامي والثقافة	١٢٣
جنسية المسلم عقيدته	١٣٦
نقلة بعيدة	١٤٨
استعلاء الايمان	١٦٣
هذا هو الطريق	١٧٣

بصدر عن دار الشريعة

في شرعية قانونية كاملة

مكتبة الاستاذ سيد قطب

- * في ظلال القرآن ..
- * دراسات إسلامية
- * مشاهد القيامة في القرآن
- * نحو مجتمع إسلامي
- * التصوير الفني في القرآن
- * في التاريخ فكرة ومنهاج
- * الإسلام ومشكلات الحضارة
- * تفسير آيات الربا
- * خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
- * تفسير سورة الشورى
- * النقد الأدبي أصوله ومناهجه
- * كتب وشخصيات
- * مهمة الشاعر في الحياة
- * المستقبل لهذا الدين
- * هذا الدين
- * معركتنا مع اليهود
- * السلام العالمي والإسلام
- * معركة الإسلام والرأسمالية
- * العدالة الاجتماعية في الإسلام
- * طفل في القرية
- * معالم في الطريق

مكتبة الاستاذ محمد قطب

- * الإنسان بين المادية والإسلام
- * شبهات حول الإسلام
- * منهج الفن الإسلامي
- * جاهلية القرن العشرين
- * منهج التربية الإسلامية
- * دراسات قرآنية
- * معركة التقاليد
- * تحت الطبع
- * في النفس والمجتمع
- * التطور والثبات في حياة البشر
- * منهج التربية الإسلامية (الجزء الثاني)
- * دراسات في النفس الإنسانية
- * كيف نكتب التاريخ الإسلامي
- * هل نحن مسلمون
- * المستشرقون والإسلام
- * قبسات من الرسول
- * مفاهيم ينبغي أن تصحح

الدعوة الوهابية	مصحف الشروق المفسر الميسر
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	مختصر تفسير الإمام الطبري
مسلمون وكفى	تفسير القرآن الكريم
الأستاذ عبد الكريم الخطيب	الإمام الأكبر محمود شلتوت
المسلم في عالم الاقتصاد	الإسلام عقيدة وشرعية
الأستاذ مالك بن نبي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أنبياء الله	الفتاوى
الأستاذ أحمد بهجت	الإمام الأكبر محمود شلتوت
التعبير الفني في القرآن	من توجيهات الإسلام
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
أدب الحديث النبوي	إلى القرآن الكريم
الدكتور بكري الشيخ أمين	الإمام الأكبر محمود شلتوت
دفاع عن أبي هريرة	الوصايا العشر
الأستاذ عبد المنعم صالح العلي	الإمام الأكبر محمود شلتوت
الحجة في القراءات السبع	الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الإسلام وتوزيع الثروات	اليهود في القرآن
الأستاذ إبراهيم البرايري	الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مدخل الفقه الجنائي الإسلامي	أيام الله
الدكتور أحمد فتحي بهنسي	الأستاذ عبد الكريم الخطيب

الإسراء والمعراج

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

قضايا إسلامية

فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

دراسة وتحليل للعهد العربي الأصيل

الأستاذ جميل بيهم

الإسلام في مفترق الطرق

الدكتور أحمد عروة

رحلتي من الشك للإيمان

(باللغة الفرنسية)

الدكتور مصطفى محمود

كيف أرى الله

الدكتور عبد الودود شلبي

ذو النون المصري

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

قال الأولون

الأستاذ السيد أبو ضيف المدني

حياة محمد في عشرين قصة

الأستاذ عبد التواب يوسف

الإيمان الحق

المستشار علي جريشة

الجائز والممنوع في الصيام

الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء

المذاهب الأربعة

الدكتور عبد العظيم المطعني

ونزل القرآن

الأستاذ أحمد فراج

أيها الولد المحب

الإمام الغزالي

الأدب في الدين

الإمام الغزالي

شرح الوصايا العشر

للإمام حسن البنا

خفايا الإسراء والمعراج

الأستاذ مصطفى الكيك

حقوق الإنسان بين الإسلام والمذاهب المعاصرة

الأستاذ عبد الله المحمود

الشيوعية والشيوعيون في ميزان الإسلام

الدكتور عبد الجليل شلبي

مطابع الشروق

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - بـرقـيـثا : داشـروق
القاهرة : ١٦ شارع جواد حـسـني - هاتف : ٧٥٤٣١٤ - بـرقـيـثا : شـروق القـاهـرة

٢١٠

س.ق.م

سيد قطب

معالم في الطريق . بيروت ،

دار الشروق ، ١٣٩٣ = ١٩٧٣ .

١٨٧ ص . ، ٢٠ سم .

